

يوميات عربية

أشرف أبو اليزيد

قافلة حكايات مغربية

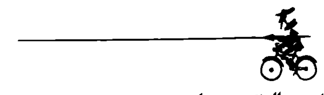
المؤلف: أشرف أبو اليزيد/ عنوان الكتاب: قافلة حكايات مغربية
الطبعة الأولى: ٢٠١٧.
تصميم الغلاف والإخراج الفني: الناصري

ISBN: 978-88-99687-86-1

سلسلة يشرف عليها المركز العربي للأدب الجغرافي
تصدر بالتعاون بين:



دار السويدي للنشر والتوزيع
أبو ظبي، ص.ب: 44480/ الإمارات العربية المتحدة
هاتف: 0097126447474/ فاكس: 0097126449797 / alrihla@gmail.com



منشورات المتوسط

ميلانو / إيطاليا / العنوان البريدي:
Alzaia Naviglio Pavese. 120/ 20142 Milano / Italia
العراق / بغداد / شارع المتنبي / محلة جديد حسن باشا / ص.ب 55204.
www.almutawassit.org / info@almutawassit.org



يوميات عربية

أشرف أبو اليزيد

قافلة
حكايات مغربية

استهلال

هذه سلسلة جديدة من أدب اليوميات، تأتي بعد مرور عقد ونصف العقد على تأسيس جائزة ابن بطّوطة، التي شكّلت تحدّيًا لإمكانات الكتّاب العرب وميولهم الأدبية، وحافزًا لكتابة أدب اليوميات، إنْ في فضاء السفر، أو في فضاء الآخر، حيث تقيم، اليوم، نخبة من الكاتبات والكتّاب العرب المهاجرين عن أوطانهم، والمَنفيين منها بفعل الاستبداد والقمع والحروب وضياع الحُرّيّات.

وقد حضّت هذه الجائزة، الأولى من نوعها في الثقافة العربية، الكتّاب العرب الجدد على استئناف مغامرة الكتابة في هذا اللون الأدبي الذي كان قد شهد ضمورًا واختفاء على مدار عقود، فأنعشت الرغبة في مقاربته، وراحت اليوميات تخرج إلى النور، إنْ من خلال منشورات "المركز العربي للأدب الجغرافي - ارتياد الآفاق"، أو من خلال منصّات وناشرين هنا وهناك في دنيا العرب.

هي سلسلة، نوسّع معها من مساحة التفاعل مع أدب اليوميات استقبالًا ونشرًا، بما يتعدّى النصوص الفائزة بالجائزة إلى ما هو أبعد وأوسع، نُباشر نشرها بالتعاون مع "دار المتوسّط - ميلانو"، بوصفها مشروعًا جديدًا، وُلد في المغترب الأدبي العربي، ويُعبّر - في كثير من منشوراته - عن نزوع أصيل إلى الكتابة الحُرّة والتفكير الحُرّ، ويشترك مع "مشروع ارتياد الآفاق" خصوصًا في بحثه عن سُبُل جديدة ومبتكرة في بناء جسور ثقافية

بين ضفَّتَي المتوسط، وهو ما يمكّن من خدمة فكرة انفتاح الثقافة العربية على العالم وثقافاته، والتعريف بأفضل ما تُنتجه قرائح الأجيال الجديدة من الكتّاب العرب الذين لا يعدّون أنفسهم قارّة منعزلة، ولا يرون حاضرًا لثقافتهم من دون التفاعل الحيّ مع الثقافات الأخرى خصوصًا في هذه البحيرة العظيمة، ولا يرون مستقبلاً زاهرًا لها، ما لم تكن نتاجاتهم الأدبية والفكرية وتطلّعاتهم الثقافية جزءًا أساسيًا من تطلّعات الثقافات الكبرى في البحر المتوسط.

***

شكّل أدب اليوميات عماد مشروع "ارتياد الآفاق" الذي يُعدّ، اليوم، مشروعًا فريدًا من نوعه في الثقافة العربية، لكونه عَدّ أن أدب السفر والتواصل مع الآخر هو الاختبار الأهمّ والدليل الأسطع على انفتاح ثقافة على ثقافات أخرى. ولطالما نظرنا إلى سطور يوميات الرحّالة والمقيمين في المنافي وديار الاغتراب، بوصفها مُدوّنات، تُشكّل وثائق أدبية وتاريخية معا، وهي لوحات فنّيّة مدهشة، تكشف عن مشاعر حميمة وخلجات وجدانية فيّاضة، وخواطر وانطباعات، ترصد المرئيات، وغالبًا ما تُثري القرّاء بحَدْس شاعري، وابتكار فنّيّ، وجمال في التعبير، عبر خيال يُعانق الواقع، ويُوقظ الذاكرة، فيأتي بالممتع والمدهش. مرايا تتعاكس، بلدان قريبة وبعيدة، أماكن جديدة وزوايا لم تُستكشَف، ولا يمكن استكشافها إلا بالأدب، وقد استنفد التسجيل والتصوير المباشر غايتهما. ووُلد في العصور الحديثة أدب يوميات، يجعل من أصحابه شعراء وفنّانين أكثر منهم مُدوّني وقائع. اكتشاف المكان واكتشاف الذات سعيًا وراء فَهْم حقيقيّ لها. هكذا تنبثق الرؤى من معاشرة الناس والمُدُن والأنهار والجبال، وترتسم في صياغات جديدة للوجدان والنظر والتعبير عبر نصوص حية عابرة للزمان، كما هي عابرة للمكان.

نبّهنا مرارًا خلال سنوات عملنا في هذا اللون الأدبي إلى أن أحد أهداف ما حقّقنا ونشرناه من كُتُب اليوميات والرحلات العربية إلى العالم، هو الكشف عن طبيعة الوعي بالآخر الذي تشكَّل عن طريق السفر والإقامة في ظهراني الآخر، والأفكار التي تسرّبت عبر سطور الكتاب، والانتباهات التي ميَّزت نظرتهم إلى الدول والناس والأفكار. فأدب اليوميات، على هذا الصعيد، يُشكِّل ثروةً معرفيَّةً كبيرةً، ومخزنًا للقصص والظواهر والأفكار، فضلًا عن كونه مادّة سرديّة مُشوِّقة، تحتوي على الطريف والغريب والمُدهش ممّا التقطتْه عيون تتجوّل، وأنفسٌ تنفعل بما ترى، ووعي يلمُّ بالأشياء، ويُحلِّلها، ويراقب الظواهرَ، ويتفكَّرُ بها.

محمّد أحمد السويدي

إلى حَفَدَةِ ابن بطّوطة

أشعرتْني خطواتي في المملكة المغربية أنني برفقة خيط من الحرير، يغزل صورًا في بساط ريح، تحلّق أطرافه على شواطئ البحر، وعند أقدام المحيط، وفي قلب الصحراء، وأعلى قمم الجبال، وكأنني في درب عجائبي، يسمح للأسطورة والتاريخ أن يتآلفا ويستأنسا الحياة معًا.

الرحلات التي يتضمّنها هذا الكتاب ثمرة سفرات دامت أسابيع على مدار سنوات، تبدأ بالاستعداد للسفر، وتُستهلّ بأشهر مُدُنها كازابلانكا؛ الدار البيضاء، وتحيا بالتنقّل برًا بين شمالها وجنوبها، في وثبات يخفق القلب معها حين يسطّر القلم ما يراه، حيًا يستذكر التاريخ، وحاضرًا يستشرف المستقبل.

رحلاتي في بلد أبي الرحّالة العرب جميعًا؛ ابن بطّوطة، أقدّمها مع باقة محبّة إلى ذكرى الجدّ الأكبر لهذا الأدب العربي الفريد؛ أدب الرحلة، مثلما أهديها إلى حَفَدَته، الذين وجدتُ عندهم صدرًا رحبًا، أورثهم إيّاه الرجل الذي اتّسع صدره للعالم، وأخصّ بالذِّكْر محقّق رحلاته العلامة الأكبر الدكتور عبد الهادي التازي.

كما أنها باقة ورد، أضعها عند عتبة بلد جميل، تدعم جسر المحبّة بين المشارقة والمغاربة، وهو الجسر الذي نعتمد عليه، ليكون رسالة تواصل بين التواريخ والأجيال والمستقبل المشترك.

وَرْزَازَات
قافلةُ حِكَايَاتٍ مَغربيَّةٍ

يشي أوّل اسم تقرؤه عند عبورك بوّابة "وَرْزَازَات " بما سيلي من مشاهد وحكايات: مدرسة ابن خلدون!

كأنك ستعبر الزمن الذي جاءت بك منه الطائرة، بعد أن تتركه على مشارف المدينة، لتلج زمنًا آخر، وثقافة مغايرة مع اسم عالم الاجتماع الخالد، الحيّ في شرايين المُدُن العربية وساكنيها وحضارتها.

هنالك ستفسّر العمران وما قبله، وأنت تطوي الأرض في قافلة حكايات مغربية، تحملك إليها "وَرْزَازَات". إنها الواحة، والمدينة، والقرية، والكتاب المفتوح الذي خصّ صفحة منه للحكايات، وأخرى للأساطير. وما بين الحكاية والأسطورة دروب جغرافية وتاريخية طويلة، افترشتْها القصبات والأمنيات في قلب الصحراء.

جبالٌ ووديان، سيلٌ يحمل الطمي والخصب، وشمس تجاهد السحبَ الداكناتِ، هكذا تبدأ رحلتنا بُعيدَ "وَرْزَازَات" بعبور سدّ المنصور الذهبي. الصور نفسها تتناسخ مرّة بعد أخرى .. جبال ووديان، سيلٌ وشمس. نمرّ بمجموعات من البدو، فيقول دليل الرحلة شارحًا: بعد أن ينتهي الشتاء يبدأ الرُّحَّل في الاحتفاءِ بالربيع، والخروج من مكامن البرد، تتحرّك قبلهم وبعدهم قطعان الغنم وقوافل الإبل.

كانت وجهتنا إلى قلب الصحراء، ونحن فيها. العَقدُ المكتوب الذي

وَقّعناه. أنا وزميلي. مع الجَلالي مصطفى. الدليل الذي يفتخر لانتمائه إلى أولاد جَلّال "بتشديد اللام الأولى". يرسم خطّ الرحلة كالتالي: سنغادر "وَرْزَازَات" إلى أولاد إدريس، عبر وادي درعة، ومنطقة الواحة، مرورًا بزاكورة وخَزَانة تمْكروت "تمجروت نطقا"، والعرق اليهودي. وهو بحر الرمال الخادع، والاسم على مسمّى!

نخرج من الطُّرُق المستوية، فيبدأ الصعود إلى الجبال المحيطة والخوف من السقوط المحيق. لحظات وتبدأ الانحدارات، والمنحنيات التي لا نبصر فيها نهاية الطريق الصاعدة. تذكّرتُ أنني اخترتُ هذه الطريق عوضًا عن طريق "وَرْزَازَات. مراكش" الخطرة التي حذّرني منها أصدقاءٌ في الدار البيضاء. هذا التحذير جعلني أختار ما اعتقدتُ أنه أيسر، ولو علمتُ الغيب، لاخترتُ الواقع.

وهكذا ما إن نخرج من قلب الغيم، حتّى تلقانا طُرُق منحرفة، وأخرى منجرفة. من بعيد وفوق الدنيا بأسرها يواجهنا شيخ عملاق أسود، كأنه مارد خارج من قمقم الحكايات الصحراوية. ها هو جبل كيسان المتجهّم بلونه الداكن "يُرحِّبُ" بنا. الجبل يحرس أكداز متخفّيًا بعمامة رمادية من الغيم. وَجْهُه يشرف على واحة مزكيطا، و٢٧ ألف هكتار من الأرض التي ينمو بها ٢٧ نوعًا من التمور، أجودها في الجنوب. من أعلى جبال الأطلس في تلك المنطقة التي تطلّ على الوادي، تبدو لنا قمم النخلات مثل وَرْدَاتٍ أبدية على مائدة من الصخور الأزلية.

أدنى جبل كيسان وأخواته، وفي قلب واحة وادي درعة، تنام متفرّقات قرى صغيرة. ستظنّها غير مأهولة، حتّى تلمح قرويًا يسير هنا، أو قرويتين تتوقّفان هناك. إنه يوم في حياة الجنوب، يمشي فيه الزمن متمهّلًا على عربة، أو درّاجة، أو دابة، وتستوقفه مصافحات وابتسامات وتحيات.

البيوت حولها شرائط صغيرة مزروعة بالخضراوات، وفي الحقول يزرعون التمر والحنّاء والقمح والشعير والموز والتين والعنب والسفرجل والتفّاح، وكذلك قصب السّكّر الذي ليس على قرار الأرض مثله طولًا وعرضًا وحلاوةً وكثرة ماء. أعرف كيف ساهمت هذه المنتجات في تشجيع ممارسة بعض الحِرَف المحلية، مثل النسيج الذي كانت له أهمّيّة كبيرة لوجود الموادّ الأوّلية كالصوف. ويحدّثنا الإدريسي الرحّالة في هذا الشأن عن "الأكْسِية الرِّقاق والثياب الرفيعة" التي كانت تُنتَج بالمنطقة.

بعد الهبوط، سنمرّ في طُرُق طينية كثيرة، إنها طُرُق مختصرة، ولكنها وعرة، لن نضطرّ إليها في رحلة العودة. الحمد لله، لم تكن لتُرى في الليل. نمرّ بعربة نقل التمر من القرى إلى حيث يتمّ توزيعه في الشمال، ويتحلّق حولنا صبية صغار، يودّون بيع بضع حبّات من التمر في حافظة صغيرة من الخوص. على مسافة البصر والطريق قصبات أو آثار لها، حيث يحمل كل برج منها قصة، فمُلاكُها كانوا حماة القوافل، ومنها قصبات أولاد عثمان، وقصبة القائد العربي. وعلى مسافة البصر أيضًا عبارات جدارية ضخمة مرسومة بالحجر أو اللون على سبّورة الجبال: الله. الوطن. الملك. الشعب بكَ يسمو ويفتخر.

البيوت هنا نموذج في تدوير الخامات البيئية للصناعة والحياة: الجدران من الأحجار والطين، والأسقف من الخشب والسعف، وكلها خامات متوافرة كالماء والهواء. أقرأ أسماء المُدُن والقرى والواحات والقصبات: وَرْزَازَات، أفلاندرا، مزكيطا، أكدز، تامزموت، تنزولين، تمكروت، طزواطة، زاكورة، امحاميد الغزلان، لافتات موسيقية الجَرْس حتّى لو ضاقت بها الأذن، وعزّ تفسيرها على العقل، لكنك تشعر أنك مررتَ بها من قبل. ليس في الأحلام، ولكن الصورة قريبة بدرجة تُدهشك ممّا تتوقّعه.

ما إن ولجنا "زاكورة" حتّى هجمت علينا البيوت الخرسانية. بيوت تنتمي إلى لا مكان، فلا تكاد تحفظ من خصال الجنوب الصحراوية المعمارية شيئًا، يشقّ صفّي بيوت المكان شارع رئيس، ربّما تختلس النظر إلى الطُّرُق الفرعية، فتعود إليك بقايا الملامح المعمارية المميّزة، أو لا تعود. ستتعرّف إلى التاريخ من لافتات بعض المحلات، ليس غريبًا أن تجد فندقًا أو سوقًا، تحمل اسم تمبوكتو، فمن هنا بداية الطريق للجنوب. وحين نصل إلى أولاد إدريس يكون وقت الغداء قد حان، يأتي الطاجن، الخضار واللحم، الوجبة الوليمة، وبعدها الشاي الذي يميّزه سكّر القوالب الكثير، وهو لا يذوب بملعقة، بل يكفي إعادة صبّه مرّات ومرّات بين الكأس وغلاية الشاي. ولا بد أن يُصبّ من بُعد حتّى تتكوّن في الكأس الزجاجية تلك الرغاوى، يقول المثل: الشاي بلا كشكوش، مثل الصحراوي بلا شاش "أي أن كأس الشاي من دون هذه الطبقة من الزَّبَد، مثل الرجل الصحراوي بلا عمامة" .. تصوّروا!!

في كفّ المارد

لكنني خرجتُ بكم من "وَرْزَازَات" دون أن أعرّفكم بالمدينة التي جئتُها أبحث عمّا تبقّى من الثقافة الصحراوية. "وَرْزَازَات" تعني بالأمازيغية "من دون ضجيج". نعم، يميّزها الهدوء، وأشياء أخرى، منها النخيل الذي يسوّرها، فيمنحها لون الحياة الأخضر، والجبال التي تحوطها من طرف لآخر، فتبدو مثل حفنة من البيوت في كفّ مارد. النخلة هنا سيختزلها الفنّ المعماري، لتتحوّل إلى قوالب هندسية، بعضها فوق البعض الآخر على شكل مثلّثات متداخلة، تمثّل جذوع النخيل، أما الجبال، فهي في معمار "وَرْزَازَات" ذلك التدرّج الذي يشبه هرمًا يعلو بسطة فوق أخرى.

لكن الأمر الأميز الذي دعانا إلى هذه الرحلة كان عمارة القصور التي ابتدعها أبناء واحة "وَرْزَازَات" حصونًا دفاعية. وأنا لا أخلط بين المدينة والواحة والقرية سهوًا، لأن "وَرْزَازَات" جمعت ذلك كله، أو أنها هي ذلك كله! هذه القصور التي أشرتُ إليها تنوّعت حسب وظائفها بين قبلية، تدخل في مُلك القبائل، وتقوم على الإنتاج، وقصور زوايا في حوزة المشيخات والطُّرُق الصوفية، وتنبني على الثقافة، وقصور مخزنية في يد السلاطين والقادة والخلفاء، وتهتمّ بالشئون السياسية.

ويمكن إيجاز المباني التاريخية والمواقع والمناطق المرتّبة في عداد الآثار بعمالة "وَرْزَازَات" في أنها: خوانق "دادس" ومرتفعات "بوغافر" وكل من واد "مكون" وواد "تودرة"، وأودية الواحات ″ على حدودها"، فضلاً

عن مواقع وقصبتَي "تاوْرِيرْت" و"تافولتوت"، وقصبة القائد علي الجديدة بجماعة أكدز في إقليم زاكورة وملحقاتها "وتُنطقان باللهجة المحكية هناك أجداز وزاجورة على التوالي".

هل أصف لك القصبة القصر؟ إنها تشبه متاهة بديعة، يسكنها الحمام والهديل، أو هي بلونها الترابي مثل سجّادة أحادية اللون. ربمّا تظنّ حين تراها من الخارج أن ارتفاعها ثلاثة طوابق، لكنك في الداخل سترى كيف تولد طوابق أخرى، حتّى تبلغ سبعًا، تزيد في جهة، وتنقص في أخرى. القصبات صناديق معمارية ذات نقوش غائرة وحليات بارزة، ونوافذ وفتحات تهوية، مرّة تفضي إلى الفضاء الرحب الذي يؤهّلها لرؤيته من موقعها المرتفع. دائمًا. ومرّة تفضي إلى خلاء وَهْمي. وسواء أضاءتها الشمس من الخارج، أو أسرجت أنوار القناديل من الداخل، لا تتبيّن العين ساكنيها المحروسين من العيون الفضولية أو المتلصّصة. مرّة بفضل السور العالي، المصمت إلا من الأبواب المقوّسة والجدران الساكنة، ومرّة لبُعد البناء عن الطريق.

يحتال التصميم المعماري للقصبات على صرامة الهندسة بليونة الفنّ. فغرفُ القصبة يفضي بعضها إلى بعض، ولا تكاد غرفة تشبه الأخرى في الحجم أو التصميم أو موقع النوافذ وقربها من الأسقف، أو بعدها عن الأرضيات. وما يصل بين الغرف إلا درج مرتفع الخطوات حينًا، أو ممرّ يضيق أحيانًا، فتحسبه لم يُخلق إلا للأطفال. الاختلاف ميزة مشتركة بين الغرف التي لا يوحّدها سوى السقف الخشبي، وعنده سيبدأ الاختلاف مرّة أخرى، بين سقف ينوء بزخرفة بديعة، وآخر يقتصد، فلا يُسفر إلا عن تشكيلات جصّيّة بيضاء خرساء.

سأحدّثك عن المزاليج المعدنية لأبواب غرف قصبة تاوريرت، فهي

على الرغم من حدّتها تنتهي بمناقير طيور، تلتقط الكلام من خلف الأبواب القصيرة. ستدفع هذه الأبواب طوال القامة للانحناء عند الدخول. داخل القصبة سنعبر الدرج والممرّات، وكلّما ارتفعنا زادت الزخارف في الأسقف والجدران، وهي زخارف بألوان طبيعية. وتسمّى الأسقف بالططاوي، وهي نسبة مكانية إلى إقليم ططا، وتُصنع من أخشاب القصب والنخل والصفصاف، بينما تُصنع خزائن الجدران من خشب الأرز. أما النوافذ، فأمرها غريب، فهي في الأدوار الدنيا تقترب من السقف، فيما هي بالطوابق الأعلى تكاد تلامس الأرض. ربّما يكون ذلك التصميم حماية للتكوين الطيني للقصبات. وتتميّز هذه النوافذ بأقواس، كما لو كانت نوافذ مسجد، أما وحدات زخرفتها، فلا تكاد تتّفق أبدًا بين نافذتين. من إحداها سترى باتجاه الصحراء، وعلى قمّة أحد الأبراج البعيدة عشّ طائر اللقلق، الذي يشبه عمامة عملاقة من القشّ.

وهذه القصبة . كما تقول دراسة للباحث حسين أكيوح . تُعدّ من القصور المخزنية التي كانت تحت إمرة القائد الكلاوي "وينطق اسمه الجلاوي"، في النصف الأخير من القرن التاسع عشر"، والنصف الأوّل من القرن العشرين. وقد حصل سيد الأطلس، وهذا لقبه، على شرعية الحكم، ومعها أسلحة نارية، مكّنته من ترسيخ نظام صارم يشمل الحوز. جمع حوزة . والأطلس ووادي وواحة درعة، حتّى إذا جاءت الحماية الفرنسية اسْتخدم الكلاوي. ضمن مَن استخدمتهم فرنسا . حتّى لا تكون مملكته مرفأ اللاجئين الهاربين، أو منزل الألمان المحتمل.

أساطير الكلاوي

حين وصلت الجيوش الفرنسية إلى تاوْريرت، حيث نقف بقصبة الكلاوي الرئيسة في "وَرْزَازَات"، سنة ١٩٢٨، قامت بتشييد معسكر، شمل

المطار ودور الجنود ومحلات أنشطة، تضمن اندماج الأوربيين في وسط الأهالي، وطوّقت القبائل المحيطة المقاومة، ومنها قبائل آيت عطا "وتعني أولاد عطا بالأمازيغية"، بمراكز مماثلة. حتّى إذا خرج الفرنسيون، والكلاوي، واليهود معهم، تركت "وَرْزَازَات" في صحبة فراغ، بدأت تحاول ملأه الإدارة التنموية الجديدة، فأُقيم سدّ المنصور الذهبي لتشجيع الفلاحة، إلا أن هذا السدّ نفسه قبَر مساحة مهمّة من الواحة، وهجَّر فلاحين كثرًا، انضمّوا إلى المناطق المحيطة. وتحوّلت الواحة إلى محطّة سياحية بتشجيع حكومي، وظهرت أنشطة تجارية وخدماتية، تمكّنت من استقطاب سكان بلغوا ٤٠ ألفًا في تعداد ١٩٩٢.

روايات كثيرة عن الكلاوي تجدّد قوّة الحكاية الشعبية عن ذلك الحاكم الذي يستطيع كل شيء، بما فيها مراقبة كل قوافل التجارة في آن واحد من خلال قصباته المنتشرة. البعض يروي أن له ألف قصبة وقصبة، شيّدت على أعالي التلال مشرفة على دروب القوافل، فلا تمرّ حتّى تدفع الواجب "وهي المرادفة لكلمة الرسوم". مفردة الواجب لا تزال تُستعمل حتّى اليوم. ستسمعها من الحارس الجالس لجباية الواجب من الزوّار القادمين لمشاهدة القصبة.

اعتادت نساء الكلاوي، وهنّ أربع، أن يشهدنَ الاحتفالات المقامة في باحة القصبة من وراء النوافذ التي تحجبهنّ عمّن بالخارج. النساء، سواء الثلاث اللائي وُضعن في الطابق الثاني، أو تلك التي فضّلها الكلاوي. لأنها أنجبت له الصبي. فاختار لها طابقًا علويًا. كنّ يجتمعنَ في الحمّام، حيث يسيل الماء الساخن من أنابيب علوية، فيخلطنه بالماء البارد القادم من أدنى. تتّصل غرفة الحمّام بحجرة خلع الملابس، وللأولاد غرفة أخرى. وقد خصّصت إحدى غرف القصبة لتكون مسجدًا للنساء، فليس لهنّ

حقّ الخروج. وهكذا غرف وراء أخرى، عشرات الغرف، لم ترمّم اليونسكو سوى بضع وثلاثين منها، تكفي لتضع أيدينا على نسق الحياة في تلك القصبات قبل نحو قرنين من الزمان. للجنود هنا أكثر من غرفة، بها كوات، تناسب الرؤية، وإدخال فوهات ومواسير البنادق المدافعة عن القصبة.

دليلنا عبد الصاديق أونيل. الحاصل على إجازة الاقتصاد من جامعة مراكش. يصحبنا بين الغرف دون كلل. ولديه مبرّر منطقي، يعلّل كل ما نراه؛ فالنوافذ ثلاث. في غرفة الحرملك، لأن النساء بها كنّ ثلاثًا. والأبواب منخفضة للحفاظ على حرارة الغرف معتدلة، سواء في قيظ الصيف أو برد الشتاء، والنوافذ تقترب من الأرض في غرفة الطعام، لأن الرجال اعتادوا الجلوس على الأرض، لتناول الوجبات والمشاهدة الحية، ودرجات السلالم عالية، لأن الكلاوي ورجاله كانوا طوال القامة، وقواعد النوافذ الحجرية مثقوبة حتّى أدنى البناء، لتأتي بالهواء حين تُغلَق النوافذ الخشبية عندما تهبّ الرياح الرملية على "وَرْزَازَات"، وما كان أكثرها، فهي مكيّفات هواء، ابتكرتْها عمارة القصبات، وشرفة الكلاوي في مقدمة القصبة، ليراقب القوافل وهي تمرّ، فلا يغيب عن إدراكه شيء، حين يأمر بجبي الرسوم وتأمين القوافل. والنقوش الجصّية تمثّل آيات قرآنية وأدعية، لأن الإسلام حرّم الرسوم، "وهي في قصبة تاوريرت موقّعة باسم الخطّاط محمّد بن الجيلاني المراكشي"، وبئر الضوء يقع في وسط المبنى، لأنه يُعدّ وسيطًا مثاليًا لنقل الرسائل، إنه هاتف "وَرْزَازَات" الذي تنتقل عبره الرسائل الصوتية على ارتفاع البناء كله، وتتوزّع الكوات في أركان الغرف، لتضيء حين تسرج القناديل فضاء المكان كله ... سيضاء فنرى نتأمل كيف يترك بعض السياح أسماءهم على الجدران!

أدهشنا أن نجد رسومًا في إحدى القاعات، وكانت تمثّل ستّة أسماك،

تلتقي برؤوسها في دائرة زخرفية، وتعجّبنا كيف وصلت الأسماك إلى قلب الصحراء؟! يقول عبد الصادق - مكتوب في شهادة تخرّجه التي أصرّ على أن نراها، عبد الصاديق-: لقد أرادها صنّاع فيلم "جوهرة النيل" الذي صُوّرت بعض مشاهده في القصبة، فكان لهم ما تمنّوا، حتّى التاريخ في خدمة السينما! بحثتُ عن سبب آخر بعد أن رأيتُ الأيقونة ذاتها تتكرّر في الأواني الخزفية التي تُصنع وتُباع في "وَرْزَازَات"، فعلمتُ أن المياه التي تجتمع خلف سدّ المنصور الذهبي على مشارف "وَرْزَازَات". الذي شيد قبل ثلاثين عامًا. تأتي ببعض الأسماك، لتسبح في المياه المتجمّعة من مسيل الوديان والأمطار. هذا العام ملأت الأمطار الوادي، وأصبح محصول التمر في "وَرْزَازَات" أفضل من أيّ عام خلال عشر سنوات، كما أتيح للصيّادين. الذين يأتون قبيل الفجر إلى سدّ المنصور الذهبي. الحصول على بعض الرزق.

نمرّ بباحة هي الأكبر في قلب القرية الصغيرة، يلهو الصبية أمام تسامح إمام المسجد الذي أتى لفتح الباب للصلاة. للمسجد بوابة عملاقة ومقوّسة، لا تزال تحتفظ بالباب الخشبي العتيق، عكس بيوت كثيرة هنا، استبدلت الأبواب المعدنية بأبوابها الخشبية. الأبواب الحديدية صمّاء إلا من بضعة ألوان هنا، أو عدّة نقوش هناك. لقد وجد الأهالي في المعدن حماية أكبر، فيما وجدت الأبواب القديمة مكانًا لها بين ما يباع لدى باعة العاديات. في قلب القرية، اشترى أحد رجال الأعمال منزلين عتيقين، جدّدهما، وصنع بينهما جسرًا علويًا، وخصّصهما فندقًا ومطعمًا. يقول رفيقنا: إنه يجلب المجموعات الإسبانية مباشرة، قبل أن تبدأ جولتهم في القرية والقصبات وما بعدها.

في سوق الأحد، يأتي المغيلي إلى "وَرْزَازَات" زائرًا لابنة شقيقته في المستشفى، ولكنه يرى أن تكون الزيارة منفعة ومودة في الوقت نفسه، لذا

يصطحب شقيقته الكبرى إلى سوق الأحد، لتبيع بعضًا من بضاعتها أيضًا. عملات مغربية قديمة، منها ما تم سكّه في إنجلترا. عملات قليلة وحلي كثيرة. كانت البدويات يصنعنَ هذه الحلي كرأسمال اقتصادي واجتماعي وجمالي أيضًا، وهنّ الآن قيمة مادّية يتوارثنها، بل وتُتاح في الأسواق للبيع مقايضة بأسباب العيش. لكنها تكاد تخرج من حدود الاستخدام اليومي إلى الاستفادة الفلكلورية المستعادة. تمرّ امرأة بجلبابها المغربي المسبوك والفضفاض والمميّز أيضًا، تسأل عن مثيل لسوار فضي في معصمها، فلا تجد. تسأل عن سعر سوار آخر متاح متعدّد الحلقات، فيجيبها البائع: ثلاثة آلاف ريال. تغادرنا، وأسأله وأنا أتناول الشاي الأخضر: أسعار العاديات كلها بالريال، أين الدرهم "العملة المغربية الرسمية" هنا؟ فيجيبني بابتسامة: كبيرات السّنّ والعامّة لا يعرفون حسبة الدراهم بسهولة، فالريال أقدم، وهم يتداولون بالدرهم وحسب، لكنهم يعرفون أن الدرهم يوازي عشرين ريالًا.

الحلقات في أساور المعصم قد تكون شائعة في أكثر من ثقافة، لكن المثير عند الأمازيغ هو خاتم الزواج الذي يتكوّن من ثلاث حلقات: الأولى تشبه وتمثّل كفّ يد الرجل، والأخيرة تماثل وتشبه كفّ يد المرأة، والحلقة الوسطى تحمل صورة قلب. وحين تنضم الحلقات الثلاث على الإصبع، فهي خلاصة الحبّ ورمزه الذي يربط بين الزوجين. ولا يختلف خاتم الرجل عن خاتم المرأة سوى في أنه أكبر حجمًا.

هنا تشهد بعض الحلي التقليدية عملية إعادة تدوير، ليس فقط باستخدام العملات القديمة، وإنما بتحويل الخلاخيل والأساور إلى علب بعد إحكام غلق الدائرتين العلوية والسفلية، بقاعدة وغطاء، لتتحوّل إلى علبة فضّيّة أنيقة. أما العلب الفضّيّة المحكمة والتي تتفاوت في الحجم، فقد لعبت دورًا مهمًّا في الحفاظ على التراث المدوّن، فقد استُخدمت

للحفاظ على نسخ القرآن الكريم المخطوطة، والكُتُب النادرة. ومعظم هذه العلب المصنوعة من الفضّة وسبائك النحاس والمحلاة بعظام الجمال، بديلًا عن العاج في أغلب الأحيان، تنتهي من الجانبين بحلقتين، ليسهل حمل الكتاب المحفوظ على العنق بخيط سميك من الصوف. كما يُباع السجّاد أيضًا، وأشهر وأثمن أنواع سجّاد "وَرْزَازَات" هو ما يأتي بألوان الحنّاء، ولون الصحراء، يمكن للسجّادة أن تستغرق ستّة شهور حتّى تُنجزها النسوة.

العاديات تُباع في القرية، أو في "المارشي القديم" السوق القديمة التي تتوسّط المدينة، ولا تجد فيها شيئًا مميزًا عن الأسواق الشعبية، إيجار الرقعة فيها دولار واحد يوميًا، وتبيع كل ما يتطلّبه العيش اليومي: ملابس، توابل، حتّى أشرطة الكاسيت. ما بقي للبيع من الخناجر القديمة لا يتجاوز عمره خمسين عامًا، والآن تشجّع التشاركيات أصحاب الحرف التقليدية، ومنهم صانعو الخناجر، على إنتاجها، وتسويقها. حزام الشلوح موجود في دكّان يبيع الملابس الشعبية، إنه الحزام الذي ترتديه الراقصات، لكن الرجال أيضًا يشترونه، لترقص لهم زوجاتهم ضمن خصوصية. أعرف أن ذلك الصحراوي الشديد خارج الخيام، يترك قسوته التي واجه بها الطقس عندما يلج بيته، فيتحوّل إلى فؤاد مفعم بالرحمة، تجاه امرأته. التي ندر أن يتزوّج عليها، وهي تتمتّع بقدر كبير من الحُرّيّة، تتقاسم فضاء المكان والحياة معه. وتجاه أولاده الذين سيرثون اسم القبيلة. أسأل عن الأعراس، فيقولون لي إن كل الأعراس مؤجّلة للصيف. فهذه الطقوس تحتاج مالًا وفيرًا، لا يستطيع توفيره سوى القادمين في إجازات صيفية. حين يثقل وزن امرأة في الصحراء، أتذكّر عادة حكوا لي عنها يُطلق عليها "التبلاح"، وهو اصطلاح يعنى تسمين الفتاة، لتظهر بجسد لائق، تكون به محل احترام! وقد اختلف بعض علماء الصحراء في جواز ذلك، وحُرمته؛ ويذكر الشيخ محمّد المامي أنه ضروري لإصلاح بدن الفتاة، وتهيئتها للزواج.

يتم عقد الزواج عند أهل الصحراء بقراءة الفاتحة، بحضور أهالي العروسين، وتتراوح أيام العرس ما بين اليومين إلى السبعة أيام. ويأتي العريس في موكب رسمي كل ليلة، بينما العروس تختبئ، ونادرًا ما تجلس إلى جواره خلال هذه الفترة. وقلّد أهل الصحراء حضارات سبقتهم، فمنهم مَن يخلف أخيه بعد وفاته عن زوجته، ويتزوّجها بعد الخروج من العدّة، ما لم تكن حاملًا. وهو نوع من أنواع زواج المشاركة غير المذموم.

يحكي لي أحمد العمري كيف تعرّف إلى امرأته في إحدى هذه الجولات، كانت خارج إحدى هذه الخيام التي يمرّ بها ووالده، ليجمعا ما تريد النساء بيعه من عاديات وحلي. تُعجبه الفتاة، فيسأل والده أن يطلبها له. ولا يمرّ العام حتّى يجمعهما بيت العائلة خارج "وَرْزَازَات"، التي يأتيه يوميًا على درّاجته. امرأة أحمد من الأمازيغيات، ومعظم الزيجات المحلية . إذا صحّت التسمية . تكاد تكون بين عربي وأمازيغية. هنا في الزواج ستتّسع مياه البركة الوراثية التي تجمع قطرات عربية وأمازيغية في إناء واحد. أسأل صديقنا عن الأسماء المتواترة في الثقافة المحلية، فإذا هي أسماء محمّد وأحمد وعبد الرحمن ومصطفى، أو أنها خديجة وفاطمة وصفية، إنها الأسماء العربية الخالصة والشائعة، التي تحمل روح التراث العربي الإسلامي.

أقرأ عن التسمية لدى الأمازيغ، لا شك أن صديقنا أحمد سيجمع بين طقوسه العربية وطقوس زوجته عندما تضع له مولودًا أول بعد شهور. التسمية عند قبيلتي آيت إزدي وآيت مرغاد وآيت عطا بالجنوب الشرقي كانت تبدأ، ولا تزال، في اليوم السابع من ولادة الصبي، وهي المناسبة التي يُمنح فيها اسمه. في هذه المناسبة، يُخرَج الصبي وقت الضحى إلى خارج البيت، تمسكه الأمّ بين أيديها، ووجهه متقابل مع الشمس. تُثيره

أشعّة الشمس، وتساعده إحدى النساء المتحلّقات حول الأمّ على فتح عينيه، لينظر مباشرة للشمس. بعد أن تتمّ العملية، تزغرد الأمّ أو إحدى النساء ثلاث مرّات متتاليات، لحظتها يكون الأب أو أحد أفراد الأسرة قد أعدّ الأضحية للذبح؛ يكون عنقها باتجاه القبلة والشمس. الآن تستحقّ هذه الشمس القربان بعد أن أيقظت الصبي بأشعّتها من غفوته، تستحقّ القربان بعد أن رأته ورآها ... ويكون الذبح عادة وقت الضحى. وكم من محظوظة استحقّت اسم "شمس الضحى" لأنها وُلدت وقت الضحى. لم تفتح عينيها فقط لترى الشمس وقت الضحى، وإنما بدأت حياتها بكاملها والشمس في ضحاها.

صحراء وأمازيغ وفراعنة!

أعود لسطور رمال الصحراء، حيث يصعد صوت المؤرّخ عبد الوهاب بن منصور في كتابه "حفريات صحراوية مغربية"، فهذه الرمال "لم تكن حائلاً بين المغرب وبقية الأقطار الإفريقية، بل كانت أداة ربط وصلة وصل بينه وبينها. نعم، كانت الصحراء المغربية معبرًا لطُرُق القوافل بين المراكز التجارية القديمة بالشمال بمثيلتها بالجنوب: نول لمطة، تكداوست، أوليل، وكذا المراكز الحديثة ككلميم، السمارة، شنقيط. كما أن للأسواق الكبيرة والمواسم المشهورة بوادي نون وسوس والصحراء الشرقية أهمّيّة كبيرة في خلق احتكاك بين القبائل الأمازيغية والحسّانية، تم فيه التواصل الثقافي عبر المعاملات التجارية التي تفرض على التجّار معرفة لغة الآخر لتسهيل التواصل فيما بين العنصرين".

سيُضاف لذلك رحلات مرشدي الزوايا والطُّرُق الصوفية وفقهاء المذهب المالكي إلى مواطن قبيلة كدالة بأعماق الصحراء،. وأغلب هؤلاء الفقهاء أمازيغيون، كما أن الطَّلَبَة الصحراويين يفدون على المدارس العتيقة لحفظ القرآن والعلوم الشرعية بسوس. وإلى جانب الفقهاء، يقوم شيوخ الطُّرُق الصوفية برحلات إلى الصحراء، لنشر طُرُقهم وزيارة المريدين وجمع الهدايا. ومن أبرز هذه الطُّرُق الصوفية "الناصرية، القلالية، التيجانية، الرحالية، الدرقاوية.."

ويميّز بن منصور بين أكثر من طريق وصلت المغرب بإفريقيا؛ إحداها

طريق واحات فكيك ووادي الساورة، الذي سلكنا الجزء الشرقي له مرورًا بأكداز، لكننا لم نصل إلى نهايته، لأن آخره نهر النيجر! في الصحراء، وعند العرق اليهودي، قلب الموجات الخادعة، بدأت حرب خفية بين الرمال والكاميرا. زميلي يريد أن يصطاد صورًا، تُبقي ذاكرة المكان حية، بينما الرمال تجاهد للوصول إلى قلب الكاميرا. بعد لحظات، وفي السيّارة سيتمّ تنظيف الكاميرا من الداخل. الآن عرفتُ قيمة العباءة التي تصل أحيانًا إلى ثلاثة أمتار طولًا، وتحتاج إلى "كاتالوج" لربطها، فهي بلونها الأزرق السماوي المميّز وسط الرمال الذهبية لا تحمل قيمة جمالية فقط، بل وقيمة نفعية كبرى، حيث تحمي الوجوه من لفحات الرمال. كما شكّلت العباءة معينًا للأمثال، وعنها يقال: اللي عملها بديه، يفكّها بسينيه "أي أن مَن ربطها بيديه، عليه أن يفكّها، ولو بأسنانه"!.

عبر هذه الطُّرُق الصحراوية يحكي التاريخ والشعر كيف كان ملوك المغرب والسودان يتهادون التحف النادرة والطرف العجيبة والحيوانات الغريبة، كالزرافة التي أهداها أحد ملوك السودان إلى الخليفة الموحّدي يعقوب المنصوري، وقال عنها الشاعر أحمد بن عبد الرحمن الوقشي الكناني المتوفى سنة ٥٧٣ للهجرة:

مجنوبَــة مــن نــازح البلــدان ... حُـشِرَتْ إليـكَ غرائـبُ الحيـوانِ
صَدَقـوا لقـد جلت عـن الوحدان ... وأجلهـا يدعونهـا بزرافـــةٍ
مرقومـــة الجنبـــات بالعقيـــان ... لبسـت مـن الصفر الأنيـق ملاءة
فأتتـكَ بـين الخيـل والبعـران ... وكأنمـا قـد قسـمت في خلقهـا
قلمـــان قُلِّـــم منهمـــا الطرفـــان ... وكأن قرنيهـا إذا مثلـتْ لنـا
حتّـى لقـد أوفى عـلى الجـدران ... طالـت قوائمهـا وطـال تليلهـا
ثلـث لهـا، وأمامَهـا الثلثـان.. ... وتفاوتـت في سُـمكها فوراءهـا

وإذا كان المغرب كبلد يختصر القارّة الإفريقية في جغرافيته التي تجمع بين الغابات، والصحاري، والجبال، والأودية، والمياه التي تجري على شواطئ محيطها، أو بأنهارها، فإن "وَرْزَازَات" تختصر لغة الصحراء وتاريخ الجنوب المغربي معًا. في هذه الصحراء، تتجدّد الذكرى مع الثقافة الأمازيغية. قرأتُ كيف يحاول بعض الباحثين الوصول للأصول المشتركة بين الحضارة الأمازيغية في الصحراء المغربية والحضارة الفرعونية في مصر، يسأل أهريشي محمّد في مجلة إلكترونية: هل يكون أوزيريس الفرعوني هو آنزار الأمازيغي؟

فالأمر. كما يقول أهريشي. يتعدّى مجرد التقارب "الصوتي" للاسمين، والذي قد يكون وليد المصادفة فقط، إلى التطابق شبه التامّ لمضمونيهما الميثولوجيين. فأوزيريس في الميثولوجيا الفرعونية إله البعث والحياة الأخرى وإله الإنبات والخصوبة وإله النيل، ويقدّم في صورة رجل ملفوف في قماط جنائزي، وعلى رأسه تاج محاط بريشتين وحامل للّحية الفرعونية التي ترمز للسلطة. وبشرته ذات لون أخضر ترمز إلى بعث الروح في الأرض وإحيائها بعد موتها ، أما آنزار، فهو المطر، والمطر يحمل معاني الإنبات والإحياء والخصب. إلا أن آنزار في حقيقته ليس هو المطر بالذات، بل هو إله المطر. وهو إله للخصب والإحياء كأوزيريس. ولعل هذا ما تؤكده المعطيات اللغوية والثقافية الأمازيغية، فقد كانت النساء الأمازيغيات يخرجنَ في فترات الجفاف إلى مكان الماء "نهر، نبع..." ويتجرّدنَ من ثيابهنّ، ويغنّينَ، ويقمنَ بحركات مثيرة تجاه السماء طلبًا لماء السماء، أي طلبًا للإحياء والإخصاب.

ونسجّل هنا أن العروس الأمازيغية تأتي بألوان زينة وملابس زاهية، تتمنّى ترك الأرض وصعودها إلى السماء للالتحاق بزوجها. وبالتالي هل هذا يعني

أن آنزار كانت تُقدَّم له إحدى النساء قربانًا، كما كان الأمر بالنسبة لأوزيريس، حيث كانت تُلقى في النيل "فكرة عروس النيل"؟ الأمر يتأكد مع طقس آخر قديم، كان يقام ولا يزال في فترات الجفاف للاستسقاء، وهو عبارة عن دمية تُصنع من قصب وثياب، وتُزيّن بلباس وحلي العروس، وتُوضع في كل يد مَن يديها مغرفة ... ويُطاف بها في موكب غنائي ... يقف عند كل منزل يرقص ويغنّي، وتُرفع إلى السماء، إلى أن يرشّها أصحاب المنزل بالماء.. وبذلك تكون هذه الدمية عند قدماء الأمازيغ استحضارًا للإلهة إيزيس في عملية توسّل وتوسّط بها لدى زوجها آنزار استجداء منه للماء والخصوبة، كما كان الفراعنة يتوسّلون بإيزيس، لتحيي نهر النيل، ولتُنبت البذور الميتة بدموعها وسِحْرها.

الكل هنا شارك في فيلمَين على الأقل، لذا لم تبدُ آلة التصوير في يد زميلي غريبة، ولكن الغريب أن لديهم حساسية شديدة في الاستجابة لها، فهم يحسّون بالعدسة، وحينها يتوارون. ربمّا اعتادوا على السينما وحسب. ومن المفارقة أن السينما الوحيدة في "وَرْزَازَات" معروضة للبيع، فهي لا تجد متفرّجين، ربمّا لأن كل السكان مشغولون بالتمثيل. يحصل الممثّل الكومبارس على أجر يومي، يبلغ ١٧٠ درهمًا "نحو ٢٠ دولارًا"، تكون مائتين وخمسين في الأصل، إلا أنها بعد استقطاعات السماسرة تنخفض كثيرًا. ويقوم هؤلاء الوكلاء باستقدام المجموعات واستبدالها في الأفلام التي تُصوّر في "وَرْزَازَات". العمل في الفيلم الواحد يتطلّب المئات وربمّا الآلاف من الكومبارس، يبدأ نهارهم مع شروق الشمس، ولا ينتهي إلا بعد الغروب.

نزور الأستوديو "الصور المصاحبة" الذي شهد نجوم العالم وأفلامهم تصوّر هنا: جوهرة النيل "١٩٨٥"، شهرزاد "١٩٨٩"، سليمان وملكة سبأ "١٩٩٤"، موسى "١٩٩٥"، كوندون "١٩٩٦"، جنة عدن "١٩٩٧"، كليوباترا

"١٩٩٨"، جلادياتور "١٩٩٩"، أستريكس وأوبليكس وكليوباترا "٢٠٠٠"، و"الطاحونة الحمراء" الذي قامت ببطولته الممثّلة الأسترالية نيكول كيدمان عام ٢٠٠١، كما يتمّ بناء مدينة القدس حاليًا لتصوير فيلم جديد عنها، لم يُعلن عنه بعد. وقد عرفتُ أن شخصية بكّار التليفزيونية التي تُقدّم للأطفال جاءت إلى "وَرْزَازَات" بفريق العمل لتقديم حلقات رمضانية عن تلك المدينة الواحة، بوابة الصحراء والجنوب. أعتقد أيضًا أن الأمر سيتغيّر عندما يعرف السينمائيون أنه على حدود "وَرْزَازَات" على بعد ٥٢٨ كيلومترًا من العاصمة الرباط تمّ اكتشاف ديناصور عمره ١٨٠ مليون سنة فيها، وهو أقدم ديناصور يتمّ الكشف عنه حتّى الآن. وحاليًا تتمّ دراسة إنشاء محمية جيولوجية للحفاظ على التراث الجيولوجي واستثماره، واتخاذ إجراءات تنظيمية وقانونية لحمايته، وذلك بدعم من المخطّط الوطني للخرائط الجيولوجية بالمغرب. وقد اكتشف "سورومود"، وهو اسم ديناصور "وَرْزَازَات"، علماء جيولوجيا مغاربة وفرنسيون وسويسريون وأمريكيون، ويُعدّ من آكلي النباتات، ويعود تاريخه إلى ما قبل انفصال قارّة أمريكا الشمالية عن قارّة أفريقيا. وبلغ طول الديناصور تسعة أمتار، وقد أتاحت عظام الرأس تحديد عمره.

في "وَرْزَازَات" أيضًا تمّ تصوير فيلم لورانس العرب "وقام ببطولته الممثّل الإيرلندي الشهير بيتر أوتول". وللمخرج المغربي محمّد الصافي فيلم تسجيلي، أنتجه ٢٠٠١ باسم "وَرْزَازَات موفي" يحكي معاناة مدينة "وَرْزَازَات"، حيث يعاني الأهالي شظف العيش رغم استمتاعهم بأنهم يلعبون أدوار الكومبارس.

إنه فيلم واقعي، فالموسم السينمائي كان راكدًا، ربمّا بسبب التفجيرات التي داهمت الدار البيضاء، وربما بسبب كساد عالمي. علمنا أن منتجين

سوريين أجّلوا تصوير جميع مسلسلاتهم، بسبب الحرب في العراق، وأوقف المخرج باسل الخطيب تصوير مسلسل "سيرة أبو زيد الهلالي" الذي كان من المقرّر أيضًا تصوير مشاهده بمدينة "وَرْزَازَات". وجاء في مقدّمة الأفلام السينمائية العالمية التي تمّ إلغاء تصويرها بالمغرب فيلم "حرب طروادة" الذي كان يُتوقّع أن يزرع الدفء في جسد صناعة السينما المغربية بمدينة "وَرْزَازَات" ، والفيلم تتعدّى ميزانية تصويره ١٠٠ مليون دولار . كما توقّفت قليلاً أشغال الإعداد لتصوير الفيلم السينمائي الضخم "الإسكندر الأكبر"، وغيرها من الأفلام الأمريكية والإيطالية والإنجليزية.

شاعر وَرْزَازَات

إذا كان الشعراء في القبيلة التقليدية يتمتّعون بمكانة مهمّة بحكم حاجة القبيلة إلى مَن يدافع عنها بكلمة من الوزن الثقيل مثل حاجتها إلى سواعد قوية، تحمل السلاح، فإن خطورة شعر هؤلاء ستظهر في أثناء فترة الحماية، حيث سيمارس عليهم نوع من الرقابة مادام شعرهم يستحضر قيمًا تقليدية مضادّة للبنية الإدارية الاستعمارية، وللمستفيدين منها من الأعيان على حساب البنية الانقسامية السائدة في السابق بثقافتها القائمة على القرابة. ففي ظل الحماية، أصبح الشاعر محاصرًا، لأن القبيلة لم تعد قادرة على حمايته، مادامت خاضعة لسلطة خارجية؛ ومقاومته الشعرية تجعله في مواجهة مباشرة للسلطة الخارجية والرموز المحلية المستفيدة منها.

ويظهر الحصار على الشعراء في احتفاظ الرواية الشفوية بمعلومة مفادها أن سلطة الحماية في "بومالن دادس" بإقليم "وَرْزَازَات"، فرضت على الشعراء ضرورة الحصول على ترخيص للقيام بجولاتهم الشعرية. كما يتجلى الحدّ من حركية الشعراء في تعرّضهم للسجن فترة الحماية. وحينها لم يكن يدخل السجن إلا مَن رفع راية العصيان التي تصل إلى درجة المقاومة الفردية، أو مَن رفض أداء الضرائب والقيام بالكلفة، ولم يؤدّ التحية للقبطان!

وللشعر في الصحراء مكانة خاصة، فأهل الصحراء شعراء بالفطرة والقوّة، يبدأ تعلّقهم بالشعر بالحفظ، ليصل إلى التأليف. وإن أوّل ما يحفظ الفتى. بعد كتاب الله. قِفا نبكِ.. أي المعلّقات. ولم تكن قبيلة تختص

بهذه الفضيلة الشعرية دون أخرى. فهل كان انبساط البيئة، أم الانخراط في الحياة اليومية، أم الجهاد، أم كثرة الأسفار؟ الواقع أن سببًا منها يكفي، لكن الصحراء أعطت لأهلها هذه الأسباب كلها.

سيأتينا شاعر من أبناء الحسّان، ونعرف أن قبيلته من القبائل العربية التي نزحت إلى سوس. وبنو حسان الذين تنتسب إليهم القبائل الموجودة حاليًا في الصحراء "الحسانية" يُعدّون فرعًا من قبائل بني معقل التي كانت في موكب بني هلال وبني سليم القادمة من مصر إلى صحراء إفريقيا، ومنها إلى الصحراء المغربية. وقد ساعدها على الاستقرار فيما بين الأطلس الصغير ووادي درعة العامل الموحّدي المنشقّ عن سلطة الموحّدين علي بن بدر الذي استعان بالمعقليين، واتّخذهم جيشًا له.

باللغة الحسانية، وهي اللهجة المحكية الجنوبية للشاعر محمّد بن الحسان، وتكاد تكون مفرداتها فصيحة، لولا بعض الضمّ على آخر الحروف، يكرّس قصائده لمديح الرسول صلى الله عليه وسلم، ولا ينسى ألوانًا أخرى: الهجاء، والمنافسة الشعرية التي يحتفظ بها وبغيرها مسجّلة على الورق وشرائط الكاسيت. وحين ألححنا أن يقرأ علينا من غزلياته تعلّل بالشيب والعمر والعيب! ظللت معه حتّى قال لنا غزليته اليتيمة:

فاربيـع كيـف جـاب اخضارو　　　عــراض بــان لي فـــاوكارو
فـــا بلـــد ابعيـــد للحـــي　　　راوي بـــي ميـــاه أمطـــارو
راوه أكبـــــــــل عينـــــي　　　مـــن وحـــد جـــاب أخبـــارو
جيتـــو معـــا لا يرامحـــادي　　　ظنيـــت مـــا يهـــاب الـــزادي
حســـــــوا جـــوار حوبـــي　　　فطمنيـــت جافـــا عـــــراض
ومشامـــه المهامـــه غـــادي

بدأ يفسّر، فيعتذر. ويذكر أن قصيدته القصيرة عن فتاة صغيرة. والعرَّاض في القصيدة هو المتغزّل بالحبيبة. وأنه رآها تُقبل كالربيع حين يروي الأرض بأمطاره. وهي قصة عن فتاة لم يروها له أحد، بل رآها بعينيه. عين اليقين. وحين مرّت أمامه أحسّت به بجوارحها. وأصابته بعيونها الحادة. حتّى بكى وبكت معه جيرانه حين عرفوا ما جرى به وله. أقاطع الشاعر: أتذكر العيون، لأنها كانت ملثّمة؟ فيردّ باسمًا: نعم، ولم أر سواهما! ويُكمل أنه حين نام مرهقًا زاره الطيف، وكان قد اقترب من حافة الاحتضار. لم يكن يُريدُ سواها. ولم يكن يريد دية "فداء" لهذه الميتة، ولا مقابل للحياة التي بذلها لفتاة "لم يرَ سوى عينيها". لقد أراد الشاعر أن يموت شهيد حب من شغف بها القلب.

استمرّت الأمسية مع محمّد بن الحسّان، يختار أشعارًا، فيتلوها، وحكايات، فيردّدها. ولعلّه يستعيد الطقوس التي عاشها، والتي كان من أشهرها منافسته لشاعر آخر، أو تضمينه لتاريخ القصائد في بيوت الشعر ذاته، بحيلة نظمية معروفة.

الصحراء تفعل بك، يا بن الحسّان، ما تريد. وتُلهم سواك بالمزيد. عن الصحراء. في موضع آخر. تأتي كلمات مؤرّخ المملكة المغربية عبد الوهاب بن منصور:

يا صحرائي
أيتها الفاتنة الحبيبة، الغالية العزيزة
يا حلم الطفولة، وأمل الصبا، وفتنة الشباب
يا وردة تفتّقت عن نضرتها الأكمام، ونفحة سارت بعطرها الأنسام
ربيت على هواك، وعشت على ذكراك، أفيريدون مني اليوم

أن أنساك؟

أيتها الغادة الرعبوب، البضة الطروب

قسمًا بنون، والقلم وما يسطرون

بليلك الغاسق، ونخلك الباسق

بحبات رمالك الذهبية، وعراجين تمارك السكرية، بسحر

جمالك، وعزة رجالك، لنعيدن يا صحرائي إلى أبيك، ونجمعن

شملك بذويك، ونسفعن بنواصي غاصبيك ومضهديك.

أيتها الصحراء الحبيبة

يا مهوى القلوب، وقرّة العيون، وثلج الصدور

أنا أهواك، وأذوب شوقا إلى رؤياك

أحبّك كما أحبّ فاس، وأعشقك كما أعشق

مراكش، وأهيم بك كما أهيم بسبته وتطوان.

كذلك أرضعتني أمي وعلّمني أبي، ولقّنني معلّمي

قد ينزعون النور من بصري، والبسمة من شفتي،

ولكنهم لن يستطيعوا أن ينزعوا حبّك من قلبي،

يا حبيبتي، يا صحرائي.

ومن الموضوعات الطريفة والجديدة أيضًا في آن واحد ما كتبته الشاعرة المغربية خديجة أبي بكر ماء العينين. فقد تحدّثت عن الكنوز المكتوبة التي تحتفظ بها الصحراء. فتقول منشدة على لسان مخطوطة، تنتظر مَن يفتك أسرها:

أنـا لـم أكـن حـبرًا عـلى ورق	نحُّـوا الغبـار تروا سَـنى وَرَقي
إن تُهملـوه فغايـة الخـرق	للفكـر لا للعـث منتجعـي
مـا حـلَّ في بسـتاني العبـق	إنـي القِـرَى للضيـف أتحفُـه

يحلــو لبــث الشــجو والحــرق أنــا روضــة العشــاق موعدهــم
تســقى بـــروق رَيِّــق غــدِق أنــا واحــة بالعشـــق نخلتهــا

حتّى تقول ...

مــن طينـــة الأخشـــاب والخِــرَق مـــا كنـــت في رفي ســـوى طلـــل
تحيــي الــتراث فَخَففــتْ قلقــي حتّـــى تداركنـــــــي مؤسســـة
سرًّا يؤاخـــي مجمـــع الطـــرق كـم أثلجـتْ صـدْري وقـد نشرت

خزانة تمكروت

يقودني هذا الحديث عن المخطوطات إلى خزانة تمكروت "تمجروت"، فندرك أن صحراء المغرب، والصحراء بوجه عام، ليست تلك القفار الموحشة، والرمال الخادعة، والأرض الجدبة. تلك هي الصورة الظاهرية، التي ترسمها الأقمار الصناعية. وأنت تحتاج إلى مجسّات أخرى، لترى إلى ما وراء الوحشة والسراب والقفر. وقد تعرّضنا إلى صيغ ثقافية متوارثة، ولا آتي بجديد حين أقول لك إن في كل قبيلة موروثًا ثقافيًا متمايزًا ومتقاطعًا بشكل نادر مع سواه. وإذا كان لا يصحّ أن يبلغ عدد حبّات الرمال قصص الصحراء، فإنها لن تقل عن عدد القوافل التي عبرت دروبها. وأتحدّث عن تلك الزوايا العلمية، حيث كانت القبائل جميعها تقدّس العلم، وتُجلّ العلماء، ومن هنا كانت لهذه الزوايا المكانة والمكان اللذين ساهما في اتّساع رقعة العلم، وانتظام التواصل، والحفاظ على كنوز مكتوبة، أعدّوا لها خزانات خاصة، قاومت الزمن وعوامل صحراوية عدة. ولعل من أثر تلك الزوايا انتشار الطُّرُق الصوفية.

نصل إلى تمكروت، حيث أشهر زاوية في جنوب المغرب لتعلّم اللغة العربية والقرآن الكريم والعلوم الفلكية والهندسية والشعر. وأسّسها الشيخ

العالم سيدي أحمد ابن ناصر الناصري، الذي طاف بالأقطار العربية، ليزود خزانة تمكروت بأمّهات الكُتُب. وقد جعل من الزاوية مأوى لاستقبال القوافل وتأمينها، ومشفى للشاكين من الأمراض العقلية. ولكن، لم يبقَ سوى الخزانة وبها جزء من الكُتُب "كانت أربعة آلاف كتاب، كثيرها أُخذ إلى خزانة الرباط" ومدرسة داخلية، لتعلّم القرآن الكريم. ويُقام كل سنة موسم إحيائي لذكرى الشيخ يفد إليه من إفريقيا كثيرون، للتجارة والزيارة والتبرّك.

يصحبنا أمين المكان الحاجّ خليفة. جسد دقيق ونظّارة سوداء ونشاط جمّ. يشير الدليل إلى أن ابنه يساعده على إدارة المكان. لم يبقَ في المكتبة سوى مئات الكُتُب فقط. منها ما كُتب على جلود الغزال. ومنها ما خُطّ بماء الذهب. نسخ قرآنية من مصر وسورية وتركيا وإيران والأندلس ومالي وسواها. سِحْر وشعر، فلك وبلاغة ... يقرأ لنا الحاجّ عناوينها، وهو لايكاد يراها. كم ألفًا من المرّات أخذ يعدّدها وهي في أماكنها نائمة.. "أثر البلاغة" للزمخشري. "في إعراب القرآن" للقيرواني. "حديث البخاري". "قاموس اللغة" للفيروزآبادي. مؤلفات ابن عبادة القرطبي. "آداب الشعر" للمقري. "حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة" لجلال الدين السيوطي. "عقد الجواهر الثمينة في مدح عالم المدينة". "الشذور الذهبية الأحمدية لتعليم اللغة التركية والعربية". "روضة الأزهار في علم وقت الليل والنهار" للجادري. كما أن بها نسخة "البدور اللوامع في شرح جمع الجوامع في أصول الفقه" للحسن بن مسعود اليوسي، وهي عبارة عن مخطوط مستقلّ بأوراق من الحجم الكبير. ما أحزنني هو أننا لم نستطع تصوير المكتبة، لأن تصويرها دون تصريح ممنوع. أدور مع خزانات الكُتُب الخشبية ذات الواجهات الزجاجية، تطالعني عناوين الكُتُب وأسماء المؤلّفين الذين سبقوني إلى تلك البقعة الساحرة. كانت الحروف تنهض من الرمال مثل عنقاء. وكانت الروح تغوص في التاريخ مثل شعاع. وكنا هناك في أقصى بقعة عربية، نقاطًا على صفحة السفر.

من مكناس إلى واحة زيـــز
دَرْبُ عجـائب المغــرب

دَرْبٌ أولُّه سَجَّادٌ من بساتين ومروج، وأوسطهُ خيامٌ من أرْز وثلوج، أما آخرُه، فرمال تتماوجُ، تتمدّد حينًا، لتبدو مثل بساطٍ، وتعلو أحيانًا، فهي تلالٌ وبروج. لو أنَّ العرَّافاتِ أخبرْنَنَا في بداية الرحلة بما سنشاهده، لكنا ظننا أنها حكاية خرافية؛ فلم نكن نعبر بلدًا إلى آخر، ولا كنا سنترك ولاية إلى سواها، ولا خطّطنا لنبدِّل وسيلة انتقال، ولا نملك آلة زمن، لنعيش الفصول كلها في ساعات اليوم الواحد، وإنما هي سيّارة وحيدة، تعبرُ بنا من مدينة مكناس في الغرب، إلى واحة زيز في الشرق، داخل ولاية مكناس تافيلالت، بالمملكة المغربية. لكن الجغرافيا، التي تصنع التاريخ، تتبدّل وقتما تعتلي جبلاً، وتتلوّن حينما تهبط سفحًا، وتتزيّن عندما ترى مدينة.

الطريق كائن حيّ، تمامًا كالبشر، له أجلٌ وعمرٌ، يبدأ وليدًا، ويسير وئيدًا، من الصبا حتّى يبلغ أشدّه، وحين يهرم، يفقد ملامحه، وقد تغيب المعالم وسحناتها، تحت تجاعيد الزمن وتقلّباته. تحتاجُ المسالكُ إلى ممالك، لتظلّ حية، وإلا صارت إلى مهالك! الطريق الذي سنسلكه عرف دورات حياة متعدّدة، فكان مَدَقًا للرعاة والمزارعين، مثلما كان دربًا للتجّار والرحّالة، وعاش مسارًا للسلاطين والملوك، وخبر جزءًا من حياته مسلكًا للمتمرّدين والمستعمرين، حتّى أضاءته سنوات الاستقلال، وعلى مدى سنواتٍ وسنوات كان شاهدًا على حضارات ومحطّات تاريخية عديدة. سؤالنا في كل خطوة، أيّ مرحلة عمرية يمرُّ بها طريقنا اليوم؟

مياهٌ هَادِرَةٌ مُهْدَرَةٌ

حين تصل مدينة مكناس، ستكتشف القاعدة التي لا تعرف الاستثناء؛ بأن لكل مدينة تاريخية عريقة قسمين، أحدهما قديم، وثانيهما عصري (بدأ الفرنسيون المستعمرون تأسيس مكناس العصرية في العام ١٩٢٠م)، ويربط بين المدينتين خمس عشرة بوابة أثرية. ولا تختلف مكناس عن سواها، فلها وجهان، يفصل بينهما وادٍ، أسموه "بوفكران".

وأصل كلمة "بوفكران" أمازيغي، و"بوفكران" تعني: ذو السلاحف العربية، وأفكَر أو إفشر عامية مغربية، معناها السلحفاة، وتُجمع إيفكران، أو إيفشران، وإذا شاع ذلك الاسم الأمازيغي للوادي، فإن الأسماء العربية القديمة له كانت فلفل، وأبوالعمائر، والحديثة الدالّة عليه عين معروف ودر دورة!

وأصلُ منبع مياه الوادي، كهف كائن بقبّة جبل بوزكور، المعروف بكهف الريح، من جبال الأطلس المتوسط. وفي سفح جبل بوزكور مكان، اسمه مزعتوال "منفر البقر بلسان البربر"، ملآن بعيون الماء التي تصبّ إلى وادي "بوفكران". أما "عين معروف" التي تمتدّ خمسين كيلومترًا، فهي من أصول بوفكران الكبرى، وتَهَبُ أربعين ألف متر مكعّب يوميًا، على حدّ ما قرّرت بعض الدراسات الفرنسية قبل خمس وسبعين سنة، كان يضيع ربعها هدرًا، آنذاك!

مدينة ملكية

مثل المُدُن الملكية في المغرب؛ مراكش وفاس والرباط، عاشت مكناس أيامًا ملوكية حين اختارها مولاي إسماعيل مقرًّا لحكمه طوال الفترة من ١٦٧٣م إلى ١٧٢٦م. هنا لا تزال تحتفظ مكناس القديمة بذلك الشكل الملكي على أكثر من وجه، أسوار وبوابات وقصور وإسطبلات.. وسجن أيضًا.

بجانب البوابة التاريخية التي تصلنا بالطريق لقصبة مولاي إسماعيل قرأتُ على اللوحة التذكارية عباراتٍ مدوّنة بالخطّ المغربي الرشيق (مصحوبة بترجمة إلى الفرنسية) شرحت لي الكثير: "بأمر من صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني نصره الله، تمّ نصب هذه اللوحة يوم ٢٢ مارس عام ١٩٩٧ خلال الحفل الذي ترأسه وفدٌ وزاري في حكومة صاحب الجلالة بحضور السيد فريديركو مايور المدير العام لليونسكو (تصنيف مدينة مكناس التاريخية ضمن قائمة التراث العالمي) بناء على الاتفاقية المتعلقة بحماية التراث الثقافي العالمي تم تسجيل المدينة التاريخية لمكناس ضمن لائحة التراث العالمي في شعبان عام ١٤١٧هـ دجنبر ١٩٩٦.

إن هذا التصنيف يرسّخ القيمة العالمية الاستثنائية لهذا الإرث الثقافي، وذلك حفاظًا عليه لفائدة الإنسانية جمعاء. إن المدينة التاريخية لمكناس تمثّل بكيفية مرضية وشاملة النسيج المعماري والحضري لعاصمة مغاربية في القرن السَّابع عشر، إذ تجمع في انسجام تام بين عناصر التفكير والتخطيط المعماري الإسلامي والأوربي".

مادمنا في تافيلالت - أو إقليم فيلالة كما عهد تسميته - نتذكّر بوحسون بودميعة، أو علي بن محمّد بن الشيخ الشهير سيدي أحمد بن موسى الحسني السملالي الجزولي الذي انبسط سلطانه على الصحراء المغربية، وامتدّ حكمه حتّى إقليم فيلالة، وقد اعتَقَل خلال حكمه كبيرَ شرفاء سجلماسة؛ مولاي الشريف بن علي (في ١٦ مارس ١٦٣٨م)، غير أنه لم يذلّه في محبسه، بل أنعم عليه بسيّدة من قبيلة الوادية الصحراوية كان أولاد جرار أهدوها إليه، فتزوّجها مولاي الشريف في معتقله، وأنجبت له مَن سيصبح سلطانًا لاحقًا، ويؤسّس مكناسًا عاصمة، وهو السلطان مولاي إسماعيل.

تولى السلطان مولاي إسماعيل الملك سنة ١٠٨٢ هجرية / ١٦٧٢م، ليكون ثالث إخوة ثلاثة، أسّسوا الدولة العلوية، وثبّتوا دعائم الوحدة المغربية، هم محمّد ورشيد وإسماعيل، وفي الطريق التالية، والسطور الموالية على حدّ التعبير المغربي سنذكر أين بدأ حكمهم. أمام قصر مولاي إسماعيل وقف بائع الشراب بزيّه التقليدي، بعد قليل، ستدرك أنه لا يبيع من العصير قدر ما يكسب من التصوير. إن نفحتَهُ ما يُرضيه، وقف لعدستكَ، وإن أبيتَ، فلن ترى منه غير الإدبار!

قصبةٌ وقبّةٌ وقبْوٌ!

القصبات في المملكة المغربية هي المعادل اللغوي للقلاع في المشرق العربي. ويُعنى بها معماريًا بناية محصّنة بأسوار متينة. باللغة الدارجة في المغرب نسمع القصيبة تصغيرًا، والقصابي جمعًا. هذه الكلمة انطلقت إلى غير لساننا، ففي إسبانياALCAZABA وفي البرتغال ALCAZOVA وهما يدلان على بقايا حضرية. القاسم المشترك بين جميع القصبات هو التحصين، فهي أهم أبنية المُدُن، ويعتمدها أهل تلك المُدُن ملجأ للمقاومة في حالة هجوم طارئ أو إبان ثورة محلية. وتحتلّ القصبات مكانًا عاليًا، يشرف على المُدُن والدروب على الأغلب، أما تصميم القصبات في السهول المنبسطة، فمنتظم الحدود، يتخذ أشكالًا هندسية بين المربّع والمستطيل، وهي بمنزلة مُدُن صغيرة محصّنة بمساجدها ومخازنها وبيوتها، وتبرز في قلبها دار السلطان، أو القائد.

بعد اختياره مكناس عاصمة لحكمه، أقام السلطان مولاي إسماعيل قصبات بالنقاط الحيوية من البلاد، سواء على الساحل، تمتدّ من مهدية إلى بوزنيقة، أو في الداخل على طول الطُّرُق التي تصل العاصمة بمديونة ومراكش وغيرهما. المؤرّخ الزياني يذكر في مؤلفه "البستان" أن عدد القلاع التي بناها إسماعيل بالمغرب ستًا وسبعين قلعة، ما تزال قائمة بآفاقه.

كانت هناك في كل قصبة حامية من جيش العبيد غالبًا يتراوح عدد أفرادها بين ٤٠٠ و٣٠٠٠ رجل، معهم عتادهم وخيلهم وأسرهم، وكان القائد

في كل قصبة مسئولًا عن منطقة حراسته، فإذا وقع شيء في ترابه عاقب عليه قائد القلعة!

وقد ورث الاستعمار الفرنسي لاحقًا القصبات، واستفاد منها، منطلقًا من قصبة إلى أخرى، لاحتلال البلاد. فقصبة تادلة مثالًا عند مفترق الطريق بين فاس ومراكش، والتي أمر ببنائها مولاي إسماعيل، وأقام فيها نجله مع ٣٠٠٠ جندي من جيوش البخاري، بقصد حراسة قنطرة عبور موكب السلطان على نهر أمّ الربيع، استرعى موقعها انتباه السلطات الفرنسية، فاتخذتها قاعدة عسكرية للاستيلاء على باقي الإقليم، وكانت منطلقًا خلال فترة الاستعمار الفرنسي في إخضاع قبائل الأطلسي الجبلية، ومن هذه القصبة بالتحديد، تم التصدّي للانتفاضة القبلية لبني ملال يوم ١٥ مايو ١٩١٥، قبل أن تزحف منها الجيوش الفرنسية لاحتلال بني ملال في العام التالي.

كان من دور القصبات أن تتذكّر القبائل دائمًا وجود المخزن، ووجوب أداء الزكاة، والالتزام بدفعها مباشرة لجيش العبيد المرابط بتلك القصبات، مثلما كان واجبها السهر على توفير الخيل، وما يلزم لها، ممّا جعل زمن عمارة القصبات يتزامن مع فترة من الأمان، فتخرج المرأة، وينطلق الذِّمِّي من وجدة إلى وادي نون، فلا يوجد مَن يسألهما من أين وإلى أين.

ندخل ونخرج من باب القصبة، وله ضلفتان. الضلفة الواحدة العملاقة لها أخرى أصغر، تكفي للبشر، ولجنا البوابة إلى القصر الذي يلخّص عمارة ذلك العصر. كلُّ شيءٍ فيه فسيح، مريح للبصر والبصيرة. لا تزال الساعة الشمسية تُخبرنا الوقت بدقّة متناهية بعد قرون من وضعها. هنا لا تكذب الشمسُ، ولا يحيد ظلّها عن الحقّ. غير بعيد من قصبة مولاي إسماعيل، توقّفنا أمام قبّة السفراء. بناءٌ صغير محكمٌ، مثل كوخ عملاق، رأسه أخضر،

وله على الجانبين جوسقان للحراسة. على اللافتة، قرأتُ ما هو مدوّن على سطرين: "قبّة السفراء، شيّدها السلطان المولى إسماعيل في أواخر القرن السابع عشر الميلادي".

هنا كان السلطان مولاي إسماعيل - الذي ازدهرت دولته أيّما ازدهار - يستقبل سفراء العالم إلى مملكته، وربّما لم يكن هؤلاء على علم بأنهم مستقبلون فوق أضخم سجون العالم، إذ على بعد أمتار قليلة قرب عمّال يرمّمون المكان قادتْنا الخطا إلى بوابة مستوية مع الفناء كفتحة بئر تفضي لباطن الأرض!

سبقنا دليلانا، وتبعني زميلي، وتوزّعت السلالم على محطّتين، قبل أن نغوص في محيط من الظلام، رغم أننا في قلب النهار. لم تضئ الخطوات سوى مصابيح شحيحة الضوء. قيل لنا إن السجن الذي كان يضمّ الآلاف من الخارجين على قانون السلطان مولاي إسماعيل ممتدّ إلى ما لا نهاية، وإن السلطات الحالية اضطرّت إلى إقامة موانع غالقة به، كي لا يتوه زوّاره فيه. كان الضوء يصلنا من المصابيح، ومن كوات في الأسقف مغطّاة بالزجاج. قلتُ متأمّلًا المكان ذا الأعمدة العملاقة والأسقف البعيدة والأقواس الشاهقة: لو حوّلت المؤسّسة المغربية الأثرية هذا المكان إلى مزار، ونقلت الضيوف فيه عبر قطار داخلي يمضي بين أوّل المكان وآخره، ومنحت رخصًا للمعارض التشكيلية والمتاحف التاريخية ومحلات للفنانين ومقامات للحرفيين، لأصبح لمكناس شقيقة تحت الأرض، لا تقلّ إمتاعًا.

طريقٌ ورفيقٌ

على مدى أكثر من خمسين عامًا، وفي أكثر من ألف رحلة ورحلة، رافقت بعثات "العربي" في قارّات العالم مجموعات من الأدلاء، من كل الأجناس، والجنسيات، والألسن. دليل يتوسّط بين الرَّحّالة العربي، وبين لغة قد تكون مجرّد لهجة محكية، أو يستأذن لك حين ترغب في صورة غلاف من بين ستمائة غلاف ظهرت على وجه "العربي"، أو يقودك إلى لقاء مسئول، أو يدلّك على بيت عائلة بسيطة، أو أسرة موسرة هناك.

في كل مدينة كان هناك دليلٌ أو أكثر، أتذكّر في أحمد آباد بالهند دليلنا "رزاق"، وفي بكين "ميا"، وشمال الصين بشينجيامج القشغري "محمّد عزت"، وفي بيشيلية الإيطالية "جوليا"، وفي استنبول "سميرة"، وفي أنقرة "حسن"، وفي قازان عاصمة تتارستان بالاتحاد الروسي "ليليا ورينات ورئيسة خانوم" وفي مُدُن برلين وبون وميونخ وفرانكفورت وهامبورج ودورتموند وكولن الألمانية طائفة من أدلاء ألمان وعرب متجنّسون، وفي وَرْزَازَات المغربية "أحمد الحساني" و"الجلالي مصطفى"، وفي سيئول "تشوي أبو بكر، وجنان، ويوسف عبد الفتّاح"، من بين كثيرين، هذا غير عشرات الأسماء الأخرى من الأصدقاء في مُدُن عربية وغربية، يضيق المقام لذِكْرهم.

كان سجن اللغة له مفتاح وحيدٌ مع الأدلاء؛ وعلى سبيل المثال، ففي مدينة سورات بولاية كوجرات الهندية، كان صاحب ورشة النسيج يحدّثنا

باللغة الكوجراتية، فيترجم دليلٌ محليٌّ حديثه إلى اللغة الهندية، وينقلُ لنا دليلنا الحوار بالإنجليزية، لنحكي القصة لقرّاء "العربي" بلغتنا الجميلة!

من الطريف أننا نعودُ أحيانًا لنكون مع دليل بعثةٍ سبقتنا، كما حدث حينما كان دليلنا في الخرطوم وحولها الإعلامي محمّد جبارة، بل والأطرف أن نلتقي مجدّدًا بعد عشرين عامًا أو يزيد بدليل رحلة سبقت، مثلما التقينا في مسقط رأس الأمير تيمور بمدينة "شهرسبز" في أوزبكستان بالسيدة "مولودة"، وبين الصورتين عمرٌ كامل!

أتذكّر رفاق الدروب، وأدوِّن سردًا لأدلّة الرحلات، شكرًا لرفيق رحلتنا الحالية الطويلة من مكناس إلى مرزوكَة في واحة زيز. إذ بعد لقائنا مع الأديب الأريب عبد الرحيم العلام، الذي رتّب اجتماعنا بوالي مكناس تافيلالت الدكتور حسن أوريد، وهو في الأصل أستاذ جامعي وروائي، عرَّفنا العلامُ على صديق لهما، سيكون دليلنا في الأيام الموالية.

استعددنا للسفر، وكان علينا أن نستأجر سيّارة، ولن يؤجّر لك مكتبٌ سيّارة دون أن توقّع على شيك بعدة ملايين من الدراهم! تطوّع دليلنا، الذي سيقود السيّارة، بالتوقيع، وهكذا وفي شخص واحد هو الناقد والصحفي الدكتور حسن مخافي أستاذ اللغة العربية بكُلّيّة الآداب في مكناس اجتمعت عدة شخصيات: دليلٌ عالم بالمكان الذي ينتمي إليه، وخبير بقيادة السيّارة، ومتطوّع بدفع تأمينها حتّى نعود. فتحية نُهديها لأدلاء رحلات "العربي" مرّة بعد أخرى، في السنوات الخمسين الماضية، والسنوات الخمسين التالية!

في وداع مكناس

من مكناس بدأنا نتجه شرقًا جنوبيًا إلى مرزوكة، سنترك الحضر إلى الصحراء، سنترك وادي بوفكران إلى وادي زيز. وفي كل محطّة من دروب عجائب المغرب ستكون لنا قصة، وطرفة، ووقفة، في وداع المدينة، نستعرض مشاهدها الأثيرة. وهي التي بدأت بثلاثة قرى؛ مكناسة تازة، ومكناسة الزيتون، وتاجرارت. ومكناسة هي القبائل التي قدمت مع إبلها من الشرق، واستقرّت عند وادي بوفكران الخصب، لتؤسّس المدينة.

قرب بوابة القصبة غير بعيد عن القبّة والقبو كانت هناك ساحة تُذكّر زوّارها بساحة جامع الفنا في مراكش: راقصون تقليديون، بائعون متجوّلون، أطبّاء شعبيون، ونظّارة لا ينقطعون.

الزحام ينتقل مع البصر حين نتوجّه إلى موقف السيّارات، أو لدى باب المدارس، أو في سوق الخضار. والعجيب أنه في قلب السوق يوجد فرصة للمتدربين على "النيشان" بضرب أصابع الطباشير المدرسي، والإصابة تمنحك طلقاتٍ قصديرية للتنشين من جديد.

الطريف أن سور القصبة الإسماعيلية كان يبدو لنا في أكثر من زاوية، ولمَ لا وقد بلغ طوله ٢٥ كيلومترًا بعد الانتهاء من بناء القصبة (بدأ البناء في سنة ١٦٧٢م)!. خلف الأسوار أقيمت القصبة فوق أرض القصبة المرينية، وما أضافه إليها صاحبها ممّا اشتراه من أملاك حولها. وبالرغم من شساعة

مساحة المدينة السلطانية، فلم يكن مهيأ منها للسكن سوى جزء صغير، يقع معظمه شمالًا، يستعمله السلطان، وكبار رجال المخزن والجند والخدم. ويضم هذا الجزء مجمعًا فخيمًا، عُرف باسم "الدار الكبيرة"، وقصر المدرسة، وقصبة هدراش. والدار الكبيرة أوّل ما أسّس مولاي إسماعيل، واستغرق بناؤها ثمانية أعوام.

كانت القصبة تفيض بقصور شتّى، ولم يصرف بناء تلك القصور السلطان عن تشييد المساجد الجديدة وترميم القديمة، ويُعدّ جامع الأنوار أحد تلك المساجد التي يقال إنها شيدت من سوارٍ رخامية، يقارب عددها المائتين، وصحن بديع الشكل بهي المنظر رحب المتسع، بوسطه قبّة، ارتفعت على أن تُقاس بمثال، ولكن ذلك البناء البهي الأوصاف لم يبقَ منه إلا بابُه!

نخرج من مكناس، وكأن بانتظارنا موكب من أشجار الزيتون يمنة ويسارًا تُحيينا، أو تستقبلنا في الطريق الطويلة. نبدأ الارتفاع عن سطح الأرض شيئًا فشيئًا، وينحسر اللون الأخضر تحت عباءات الثلوج، التي تشقّها أشجار الأرز. بطاقات سياحية باهرة الألوان، تقول إن للمكان سِحْره الخاص، وللطُّرُق فتنتها المميزة.

العين على الحاجب!

كلّما مررنا بلافتة، شرح لنا دليلنا الدكتور حسن مخافي في عبارة موجزة، أو إسهابة مطوّلة تاريخ المكان، وقد يضيف إليه قصة محلية، أو طرفة لغوية، أو نبذة تاريخية. وبعد خروجنا من مكناس، بدأنا بلافتة "الحاجب"، وهي مدينة عاصمة لإقليم، يحملُ الاسم نفسه، داخل جهة مكناس تافيلالت.

الحاجبُ مدينة معتدلة المناخ، لكنها في الصيف تعرف درجة حرارة تصل إلى الأربعين. وهي تقطع الطريق الواصل بين سبتة شمالًا، والطاووس جنوبًا. وقد تأسّست هذه المدينة في عهد السلطان المولى الحسن الأول سنة ١٨٨٠م، حسبما تدلّنا آثار القصبات والقيساريات هنا وهناك، وهي الأبنية التي شكّلت بذور المركز الحضري لهذه المنطقة. كانت الأشجار التي تُسوِّر طريقنا، والحقول التي نعبرُ بها، والبساتين التي تشدّ أبصارنا، تدلّنا دون مواربة على نهوض الفلاحة في الحاجب. بدأت السيّارة طريقًا مرتفعًا، لأننا نصعد الهضبة التي شيدت فوقها المدينة، ونمت بها أراضيها.

مدينة تجمع خصائص الجبل، وصفات الهضبة، وخواصّ السهل، ممّا يجعل الأراضي بمدارها الحضاري فلاحية، ليست فقط لتربية المواشي، بل للزراعة البورية والسقوية، مع غنى الحاجب بينابيعها المائية الغنية كعين خادم، وعين مداني، وعين الذهيبة وعين بوتغزاز. ومع تربة صالحة للزراعة، ومطر يهطل سنويًا، بمعدّل أكثر من ٥٠٠ ملم، وموارد مائية جوفية وسطحية، و١٤٦ ألف هكتار من الأرض الصالحة للزراعة، وطُرُق

تصل بالمراكز الاقتصادية الكبرى مثل مُدُن فاس، والرباط، والدار البيضاء، والقنيطرة، وطنجة، وكثافة الطُّرُق القروية التي تفكّ عزلة الإنتاج الفلاحي، تُعدّ الفلاحة أهمّ من نشاطَيْها الاقتصادي والتجاري على حدّ سواء.

إفران.. باريس الأطلس!

نعبر تيمحضيت، فيذكر لنا دليلنا شهرتها بجودة الخرفان بها، ومَن يرَ المراعي حول المدينة يدرك السبب. ثمّ تستقبلنا وجهتنا التالية، وعلى بوابتها أسدان؛ واحد من حجر، وآخر من جليد! هانحن نصل إلى "أورتي"، كما تسمّى قديمًا، ومعناها البستان، أو إلى مدينة "إفران" ومعناها "الكهوف"، نسبة إلى المغارات العديدة حول مرتفعاتها، فهي مدينة الأعالي، التي تعرف الصيف معتدلًا، والخريف هادئًا، والشتاء ثلجيًا، والربيع مزهرًا. لذا يأتيها زوّارها على مدار العام، فلهم نصيبٌ ممّا تعدُ به في كل فصل. دروب إفران المتسعة، وميادينها الفسيحة، وعمارة منازلها بسقوف مائلة وقرميد أحمر، وهواء لا يشوبه ما يعكّر صفوه، يجعل منها حسب الدارج هنا باريس الصغيرة.

الأثرياء والأوربيون يتخذون منها مصايفهم ومشاتيهم، فالغابات الكثيفة، والبحيرات الطبيعية، والمزالج الثلجية، والتميّز المعماري، والفولكلور الأطلسي، يؤهّلها، لتكون مستجمًّا (وصل عدد الأسِرّة الفندقية على اختلاف مستوياتها أكثر من ١٣٠٠، تُضاف إليها الإيواءات القروية).

المنتزه الوطني لمدينة إفران يشغل مساحة تفوق ٥٣ ألف هكتار، يجمع بين السفوح المفتوحة والمرتفعات المكسوّة بغابات أشجار الأرز، الأكبر في المغرب، عدا المنابع والوديان والعيون والكهوف. والأسدان اللذان استقبلانا هما إشارتان لأسود الأطلس الحقيقية التي تعيش مع عائلات من المفترسات الأخرى، أهمّها النمور، ضمن ٣٧ نوعًا من حيوانات الغابات، في مَحمياتها، أساسها الثدييات، وعلى رأسها القرد "زعطوط" من حيث

الوفرة، فضلاً عن ١٤٢ صنفًا من الطيور و٣٣ صنفًا من الزواحف والضفادع، وغيرها من الكائنات المائية والفقريات التي تقطن بحيرات وأنهار المنتزه الوطني لإفران.

يقول تقرير سياحي إن المنطقة تعرف الازدهار مع مقبل الصيف، الذي يشكّل عامل طَرْد للسيّاح بالمُدُن والمناطق الداخلية، ممّا يجعل إفران تسجّل ارتفاعًا ملحوظًا في عدد زائريها للإقامة الترفيهية المؤقّتة. ويمثّل السياح المغاربة نسبة ٥٨ في المائة بالنسبة لمجموع السيّاح الوافدين على المدينة ومنطقة الأطلس المتوسط، وأغلبهم من المُدُن الداخلية وأفراد الجالية المغربية المقيمة بالخارج، أما الأجانب، فأغلبهم الفرنسيون والإسبان والإنجليز، إذ ارتفع معدّل توافدهم السنة الماضية على التوالي بنسبة ١٤,٧٦في المائة و٤٨,١٠ في المائة و٢١٥,٧٩ في المائة. ويستحوذ شهر يوليو وحده على ٣٣,٥٤ في المائة من مجموع الليالي المسجّلة طيلة أشهر وفصول السنة. أليست إفران باريس الصغيرة؟!

عمارة القصور

في واحات المغرب ما بين سفوح جبال الأطلس وتخوم رمال الصحراء، تنهض عمارة مميّزة، عُرفت باسم القصور. كنا نمرّ بهذه القصور، ونحن نُعجب من أنها لم تُطمَس حتّى اليوم، رغم أنها من الطين!

يقوم القصرُ حارسًا. ففي وسط محيط تندر به الأراضي المزروعة، ويقلّ فيه الماء، ويتطلّب عنصر الأمن، تُناط بالقصر مهمة مراقبة وتدبير وحماية مصادر الماء والسدود والسواقي، حيث يستقرّ هذا البناء العجيب وسط الحقول، أو عند عتباتها. قلّة الأرض المزروعة حسمت قضية عدم التفريط بها، أو تبذير منتجها، ولذلك كان هناك طلبٌ على الانتشار العمودي للبنايات، عوضًا عن الأفقي، مع الالتزام العشائري عند البناء بدعم تقاليد الاحترام والتآخي.

في عمارة القصر أساسيات: سور خارجي، أبوابٌ رئيسة، ساحات عمومية، أزقّة ودار للقبيلة، مسجد ومصلى، ومجال للمنازل وملاحقها. وهي بنايات ذات طابق واحد، لا يرتفع عنها إلا أبراج الأسوار المراقبة.

بعد تجاوُزنا لباب القصر، الذي بهذا المعنى يُعدّ مدينة مصغّرة، نجد البهو الفسيح، ولو عُدنا لتاريخ ازدهاره، لوجدنا صفوفًا من الكراسي على جنبات السور والبهو لاستقبال الأجانب، وجلوس المسنّين من القبيلة لتدارُس الأمور، والدخول بعد ذلك يكون باتجاه لليمين أو لليسار، حماية

لقلب القصر من تيارات الريح الترابية، فضلاً عن التأمين ضد الغزاة. تشمل الطُّرُق في القصر محلات للحِرَف، كما تُستغلّ مضيفة المسجد لاجتماعات المآتم والأفراح، ويلتقي فيها الأطفال والشبّان عند المغارب للّعب وتبادل الحكايات. وأزقة القصر مسقوفة، حماية من العواصف الرملية، وأشعّة الشمس الحارقة، وتيسير مستواها العلوي للسُّكنى، وبين كل سقيفة وأخرى يغازل ضوء الشمس الظلال، ممّا يعوّد العين على الإبصار داخل الظلمة، ويهيّئها لاتّقاء الضوء الباهر للنور.

انقرضت القصور، تآكلت وظيفتها، وتداعى بنيانها. النموّ السريع للسكان، واستبدال مؤسّسات إدارة القصور الداخلية مؤسّسات رسمية خارجية، والانفتاح على الأسواق الخارجية بما يتطلّبه اقتصادها من نشاط مخالف لطبيعة القصر المنغلقة، والهجرة، والدراسة، ووسائل الإعلام، ودخول السيّارات محيط الاستخدام بوفرة، جعل من المستحيل بقاء القصور على حالها ومنوالها.

تعاني القصور اليوم أمرَين، الحاجة الماسة إلى الترميم، قبل أن تندثر، وتُهدَم، فتُطمَس، وكذلك التلاعب بتراثها للإبقاء عليها للاستفادة منها للسياحة، كفنادق ومطاعم. وهنا تبدو عدة نماذج مرمّمة منها بامتياز دليلاً حيّا على إمكان الاستفادة من هذه العمارة التاريخية لأجيال لاحقة.

الرشيدية

بعد طريق جبلي، رأينا فيه ألوان السماء السبعة، ترسم حكايات خرافية فوق بساط الثلوج الذي يُكوِّن عباءات للجبال من حولنا، مررنا بغار زعبل، وعبرنا مضيقًا يسمّى ثغر الناقة، ربمّا تسمية القوافل التي سبقتْنا مئات السنين، وقد آن لنا أن نستريح. حين ظهرت أنوار بعيدة تمثّل خطًّا شبه هلالي، يرسم أفق الليل، عرفنا أننا على مشارف الرشيدية.

مرَّ نهار بارد، وبعده ليلة دافئة، في فندق فسيح، شُيّد على هيئة عمارة القصور، نستيقظ، لنجد سيّارتنا وقد غطّاها الجليد! أفلحت المياه الساخنة التي جلبها عاملُ الفندق في إذابة الجليد، لنبدأ انطلاقتنا في الرشيدية وحولها.

من الوهلة الأولى سيُدرك الزائر حداثة المدينة، ويتأكد حين يعرف أنها تأسّست عام ١٩٥٦م. كان اسمها السابق "قصر السوق"، وحسب التكوين الإداري، فهي تتكوّن من أربع جماعات وثماني بلديات وتسع وثلاثين جماعة قروية. ومن بين دوائرها التي سنزورها لاحقًا مدينتا أرفود، والريصاني.

حول الرشيدية يعاني القاطنون والمزارعون صعوباتٍ جمّة بسبب التقلّبات المناخية، والأمطار الثلجية، والصقيع. ليس فقط لخسارة الزرع، ونفوق الماشية، ولكن الأمر قد يصل إلى ضياع الأرواح. ففي مناطق بإقليم الراشدية - خاصة في منطقة الريش، و"آيت هاني"، و"أقضيم"، و"إملشيل"

- تتعدّد الأضرار من التساقطات الثلجية، مثل شلّ حركة السير، وانخفاض درجة الحرارة، لتصل إلى ١١ درجة مئوية تحت الصفر نهارًا، و١٣ درجة مئوية تحت الصفر ليلًا!

كانت أضواء سدّ الحسن الداخل هي دليلنا إلى الرشيدية ليلًا، وقد عرفنا أن ارتفاع منسوب المياه وقوّة صبيبه بوادي زيز جراء فيضان السدّ قد تسبّب في انجراف الأراضي الفلاحية المشرفة على مجرى النهر، وإتلاف محاصيلها. وتُعدّ المناطق المجاورة للسدّ كقصر ازرو تازوكة ومشقلال أكثر المناطق تضرّرًا، كما طالت الأضرار بعض التجهيزات المائية كقنوات الرّيّ والسواقي. وقد وصلت خسائر شهر واحد حسب مصدر محلي إلى جرف وغمر ٣٤ كلم من السواقي، وضياع نفق جوفي و٩ خطارات، وتحطّم ٣٧٥٠ مترا من الجدران الوقائية، وفقدان ٢٥٠ هكتارًا من الذرة و٢٤٠ هكتارًا من الفصة، وتلف ٣٥٠٠٠ شجرة زيتون وعشرة آلاف شجرة تفّاح، وستة آلاف شجرة نخيل، وتسعة آلاف شجرة لوز، فضلًا عن نفوق ١٥٥٢ رأس غنم وماعز!

مركز طارق بن زياد

كانت أخبار الصقيع وأضراره قد جعلتْنا نبحث عن وجه إيجابي، يزيل الوجوم من فوق الوجوه.

لم يكن هناك أفضل من زيارة مركز طارق بن زياد للأبحاث والدراسات. على باب المركز في الرشيدية (له مقرّ رئيس بالرباط)، أتذكّر كلمات رئيسه والي مكناس تافيلالت، الدكتور حسن أوريد، في إحدى محاضراته: "خيارات المغرب الثقافية والتعليمية ينبغي لها ألا تُنسِي المغاربة البُعدَ الأمازيغي، مثلما ينبغي ألا تكون التوجّهات الحالية والتأثيرات الخارجية عاملًا لنسيان البُعد العربي".

لا يُعدّ هذا المركز بوتقة للبحث الأمازيغي والصحراوي وحسب، بل أرضًا خصبة للبحث في المغرب بأكمله، يتضح ذلك مع تصفّح العناوين، التي تصدر عنه، مثل "تاريخ المغرب أو التأويلات الممكنة"، و"السلوك الاجتماعي والسياسي للنخبة المحلية"، و"جذور بعض مظاهر الحضارة الأمازيغية خلال عصور ما قبل التاريخ"، وغيرها العشرات من الإصدارات بالعربية والفرنسية خلال أكثر من عقدٍ كامل. حتّى إن من بين الإصدارات قرصًا مدمجًا لتسجيلات أغاني الأطلس المتوسط، يضمّ مختارات من روائع التراث الغنائي للأطلس المتوسط.

جُلُّ قوام مكتبة المركز النوعية إهداءاتٌ من باحثين مغاربة وأوربيين. المكان طابقان، لهما حوش واسع، تُطلّ عليه الغرف الأرضية، وتُشرف عليه المقاطن العلوية. حرص المسئول الذي يصحبنا على فتح كل غرفة لنا. لمسة وفاء من أوريد لمحناها حين رأيناه يخصّص غرفتين للأبحاث باسم زميليْ دراسة له، توفّيا يافعين! يعدّ المركز نفسه ليقوم بدور تنويري، ليس في التدريب وحسب، بل إن في طابقه الثاني غرفًا لاستضافة ومبيت الباحثين، عودًا على بدء التعليم الذي وفّرته المراكز التنويرية في عصور الازدهار، ولايزال العمل جاريًا على عدة أقسام فيه، لعل من أهمّها الخيمة التي تستعيد حياة الصحراء.

في الطريق بين الريصاني وأرفود، عرفنا أن البحرَ مرَّ من هنا! صحيحٌ أننا في قلب الصحراء، بعيدًا عن البحر المتوسط، لكن درب العجائب لا يكفّ عن إدهاشنا. بين الريصاني وأرفود. توقّفنا في ورشة نوعية، كان العاملون فيها يقومون بجلب الأسماك والكائنات البحرية المتحجّرة منذ ملايين السنين حين كان البحرُ يغمر المكان، قبل أن ينحسر إلى حيث يهدأ الآن. إنهم يبيعون قلب البحر في قلب الصحراء!

سجلماسة البائدة

في مواجهة بوابة مدينة الريصاني، ندخل إلى أطلال سجلماسة؛ ثاني مدينة إسلامية تشيد بالمغرب الإسلامي بعد مدينة القيروان، وعاصمة أوّل دولة مستقلّة في المغرب العربي. أسّست إمارة بني مدرار المدينة سنة ١٤٠هـ الموافق للعام ٧٥٧م. هذا الموقع للمدينة جعلها درّة العقد في التجارة بين الشمال والجنوب والشرق والمغرب، وارتبط اسمها في التواريخ العربية المدوّنة، بتجارة الذهب. الازدهار الاقتصادي ورَّث المنطقة نفوذًا سياسيًا، فبسطت حكمها، ليغطّي وادي درعة، وأغمات، وأحواز فاس، قبل أن تصبح من بين أقاليم الإمبراطوريات والممالك المغرب العربية.

لم يُبقِ الدَّهْرُ من سِجلماسة إلا الأطلال، فأخذنا نستفتي مؤرّخين وموسوعات في تاريخ المدينة البائدة.

وضع أبو القاسم سمكو بن واسول المدراري الصفري، زعيم وقائد خوارج مكناسة الصفرية أساسات الدولة في سجلماسة، ولكنه جعل أوّل حكامها عيسى بن يزيد الأسود، كي يتَجَنّبَ الصراع بين مختلف الفصائل المكناسية. والتي أبدت رغبتها في السلطة، ويرسّخ مبدأ المساواة بين كل المسلمين وأحقّية كل واحد منهم ليكون حاكمًا، مهما كان جنسه أو لونه، فضلًا عن الكثافة السكانية العالية للعنصر الأفريقي بسجلماسة في ذلك الوقت، خاصة إذا علمنا أن معظم قبائل مكناسة لم تستقرّ بعد بالمنطقة

خلال هذه الفترة التأسيسية، بالإضافة لسبب اقتصادي بحت، وهو جذب وتشجيع تجارة القوافل مع أفريقيا جنوب الصحراء.

بويع عيسى بن يزيد الأسود من قبل كل سكان سجلماسة، وحكمها فترة ١٥ سنة حتّى العام ٧٧٢م، قام خلالها بعدّة إنجازات، منها تنظيم قنوات الرّيّ، تشييد الحدائق والبساتين، توطين قبائل الرّحّل. ومع وصول القبائل المكناسية إلى سجلماسة، قُتِل عيسى بن يزيد الأسود، وبُويع أبو القاسم سمكو. وتحت حكم الدولة المرابطية الساعية لتوحيد المغرب، بدأ التحكّم بالمراكز التجارية المهمة حتّى تتمكّن من تحمّل نفقات تحرّكاتها العسكرية. كانت سجلماسة من بين المراكز الأولى التي طُبّقت عليها هذه الخطة. وقد عَرفت المدينة مع السيطرة المرابطية نموًّا كبيرًا، ارتبط أساسًا بتجارة القوافل التي كان المرابطون يتحكّمون في مختلف محطّاتها وطُرُقها.

شكّلت سجلماسة قلب شبكة الاقتصاد المالي للدولة بعد سيطرتها المباشرة على أهم مراكز جنوب الصحراء، مثل تمبكتو وأوداجست. ومنذ استيلائهم على سجلماسة سنة ٤٥٠هـ/ ١٠٤٥م ولمدة ٣٠ سنة والمرابطون يضربون نقودهم بسجلماسة فقط، وتحت اسم أبو بكر وحده، ثمّ أخذت بعد وفاته تُسكّ بمراكش، وأغمات، وفاس، وتلمسان، والأندلس. من بين ٧٧ عملة مرابطية الموجودة بالمكتبة الوطنية بباريس ينتمي نحو نصفها أي ٣١ دينارًا إلى دار السكّة السجلماسية. كان هذا الدور الاقتصادي البارز وراء جعل الموحّدين من سجلماسة هدفًا أوّل في مخطّطهم السياسي (١١٣٩م -١١٤٥م). وفي عهد المرينيين (١٢٥٥م - ١٣٩٣م) ظلّت سجلماسة من كبريات مُدُن المغرب، لكن دورها التجاري المهم تقلّص بعد تحوُّل الطُّرُق التجارية نحو المحيط الأطلسي، وسيطرة قبائل بني معقل على أهمّ المحاور والمراكز القوافلية، وأيضًا إعطاء الأسبقية من طرف الدولة المرينية

للطريق الغربي، وانشغال حكام بني مرين في مواجهة المشكلات السياسية والعسكرية الناتجة عن الزحف المسيحي نحو الأندلس، وعن الصراعات الداخلية المختلفة والكثيرة.

الضرائب الثقيلة المتنوّعة والصراعات القبلية، كانت سببًا وراء تدهور واندثار سجلماسة مع نهاية الدولة المرينية نحو العام ١٣٩٣م، وبذلك غابت عن الساحة التاريخية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية، بل وغابت أيضًا عن الكتابات التاريخية اللاحقة بشكل شبه تامّ. هذا وقد زارها الرحّالة العربي المشهور ابن بطوطة في النصف الثاني من حكم الدولة المرينية لسجلماسة، وتحديدًا في خريف عام ١٣٥١م قادمًا من فاس.

تكوَّن النسيج الديموجرافي لسجلماسة (الذي أورثته للمنطقة التي نزورها اليوم)، من الأمازيغ، وهم ثلاث مجموعات، زناتة، وتشمل قبائل مكناسة التي يرجع إليها الفضل في تأسيس سجلماسة، وصنهاجة التي تُعدّ العنصر الأكبر كثافة بالمنطقة، وعَرف معظمها الاستقرار مع سيطرة المرابطين على سجلماسة بزعامة أبي بكر بن عمر اللمتوني ويوسف بن تاشفين سنة ١٠٥٤م، ومصمودة التي استقرّت في الغالب مع تحكّم الموحّدين في سجلماسة ما بين سنتي ١١٣٩م و١١٤٥م، وكانت القبائل المصمودية بالرغم من قلة عدد أفرادها تبسط نفوذها على دواليب التجارة والجيش والقضاء والإدارة. كما استقر العرب بسجلماسة بداية من عهد الفتوحات الإسلامية خلال النصف الثاني من القرن السابع الميلادي، وهي الفئة التي يعود إليها الفضل في نشر تعاليم الدين الإسلامي بالمنطقة، ومن العرب قبيلتا "بني هلال" و"بني معقل" اللتان بدأتا رحّالتين، قبل أن تستقرّا في المنطقة.

من العرب أيضًا الشرفاء الذين لم يظهروا بالمنطقة حسب أغلب

المصادر التاريخية إلا خلال النصف الثاني من القرن الـ ١٣م عندما وصل إلى سجلماسة المولى الحسن الداخل جدّ الأسرة العلوية سنة ١٢٦٥م، فاستقر بالمدينة، وخلّف بها ذرّيّته التي استطاعت توحيد المغرب العربي تحت رايتها ابتداءً من النصف الثاني من القرن الـ ١٧م.

ضمن ذلك الزخم الكوزموبوليتاني للمدينة عاش بها الأندلسيون (تشير مصادر تاريخية إلى أنهم ساهموا في تشييدها)، والأفارقة الذين قدموا إلى المنطقة عن طريق تجارة القوافل، وأهل الذمّة الذين ساهموا في الإنعاش الاقتصادي للمنطقة، وخاصة في مجالات التجارة وسكّ العملة والنسيج والصناعة الجلدية، والحراثون وهم فئة ملوّنة تميل بشرتها إلى السواد، أصلها غير معروف بدقة، وربّما تكون بقايا الأجناس البشرية الأفريقية القديمة من الجيتول أو النوميديين أو الأثيوبيين. في فترة ازدهار التجارة مع سجلماسة وعبرها، كانت هناك طُرُق تجارية، وكان الطريق يُقاس آنذاك بالمرحلة، ويُعتَمَد في ذلك على عدد الآبار بشكل أساسي، فعرفت الطُّرُق من سجلماسة إلى تاغزة (٢٠ مرحلة)، وإلى أودغشت (٥١ مرحلة)، وأوليل (٦٠ مرحلة)، وغانة/كاو (٦١ مرحلة)، وبلاد التكرور (٩٠ مرحلة).

كانت صادرات سجلماسة قمحًا وتمرًا وعنبًا وملحًا، ونسيجًا وحليًا وفخارًا وجلدًا ومواد خشبية، ومواد التجميل والتوابل من حنّاء وكحول وكمّون وقرنفل، ومواد علمية من كُتُب ومخطوطات. أما الواردات، فهي متنوّعة، ومن أهمها ذهب غانا، جلد اللمط وريش النعام من أودغشت، حرير المشرق والفخّار الأندلسي، وغير ذلك. ومن الأمثلة على مكانة سجلماسة التجارية في ذلك الوقت أن أمويي الأندلس كانوا يُقبلون على منتوجات المغرب خاصة ذهب الصحراء، عن طريق سبتة وفاس وسجلماسة حتّى إن الدنانير الذهبية الأندلسية كانت تُضرَب باسم

الأمويين في مُدُن مثل نكور وفاس وسجلماسة، وقد اكتُشفت مجموعة مُهمّة من هذه الدنانير الأموية التي يعود تاريخ سَكّها إلى نهاية القرن الرابع الهجري / نهاية القرن التاسع الميلادي وبداية القرن العاشر بمدينة العقبة بالأردن في أبريل من سنة ١٩٩٢م، وكان من بينها ٢٩ مسكوكة من أصل ٣٢ ضُربت بسجلماسة، ورواج نقود سجلماسة في العقبة يوضح لنا مكانتها التجارية حتّى بين الأصقاع البعيدة نسبيًا عنها. وكذلك فإن نصف مبالغ جبايات الفاطميين (أي نحو ٤٠٠ ألف دينار) كان يُتوصَّل إليه عن طريق سجلماسة.

قرية مهجورة، وعين زرقاء!

لا أعتقدُ أن أحدًا عاش في قرية كاملة بمفرده، إلا أن تكون مكانًا في خيال سينمائي أو مخيّلة روائي. لكن دروب عجائب المغرب تفضي بك للخيال، وتُذكي لديّ المخيّلة بلا مقدّمات. قال حسن مخافي، والسيّارة تعبر طُرُقًا طينية بصعوبة: لو عرف أصحاب السيّارة وعورة الطريق ما أجَّروها لنا!

كان دليلنا يمضي، وكأن هناك بوصلة تقوده. في أقلّ من ساعة، وصلنا إلى قرية، يعرفونها محليًّا باسم "مَن لا يخاف"، وصفًا لقاطن وحيد بها، يأتيها من حين لآخر، اسمه عبد الرحمن. تجولنا بحُرّيّة، في القرية التي خلت من أهلها تمامًا. لا تزال بئر المسجد المضاء بالكهرباء تنتظر دلو الزوّار. على الأسقف المتجاورة، تستطيع أن ترى الدروب الخالية من أهلها. كثير من القرى تشبه "مَن لا يخاف"، حيث هجرها أصحابها بحثًا عن الرزق في مكان آخر. يُنادَى على عبد الرحمن، فيأتي، تشبه عيناه وجه ماء الشاي الأخضر الذي يُعدّه لنا، يظلّ معنا متحدثًا حتّى يتهادى صوت المؤذّن من مسجدٍ غير بعيد، فيلحق بصاحبين له، أكملا وضوءهما من النبع الجاري حول القرية. سنتجه بعد ذلك إلى مكان أثير لكل مَن يزور المنطقة. في

الطريق، سنتوقّف لنُشرف على قرية هنا أو هناك، نعرف أنها مأهولة حين نرى دخان الطعام يصعد في سمائها.

لافتة بخطّ ركيك بالعربية والفرنسية تصف المكان الذي هبطنا إليه بدرج حجري شبه عمودي: المملكة المغربية، وزارة الداخلية، عمالة إقليم الرشيدية، جماعة شرفاء مدغرة، العين الزرقاء لمسكي، واجب الدخول لكل شخص ٥ دراهم، أوقات الدخول من الساعة الثامنة صباحًا إلى الساعة السابعة مساء، ملاحظة قرار جماعي رَقْم ١ بتاريخ ٨ سبتمبر ١٩٩٥، رئيس المجلس الجماعي.

قرب العين الزرقاء، وهي بركة طُليت جدرانها باللون الأزرق، تأتي ماؤها من كهف لا يبين له قرار، رأينا بضعة محلات للمشغولات التقليدية، من النسيج والفضة والخشب، وغيرها من الخامات. حتّى يدعونا مولودي، المطرب الصحراوي، إلى دكّانه ومسكنه، ليقدّم لنا عرضًا خاصًا، يشاركه به زميلان له، ويستخدم فيه أحجارًا متعدّدة الأحجام، لتكون مختلفة الإيقاعات والأصداء حين تستقبل قرع العصا. المطرب الشعبي يزور أوربا، يقدّم مزيجًا من فنون الغناء في الأطلس. وفي بيته يبيع الأسطوانات، جنبًا إلى جنب مع عاديات، يعود بعضها إلى تاريخ الاستعمار، من أدوات موسيقية، وأجهزة سمعية، وآلات تصوير، وغيرها.

المهرجان الدولي لموسيقى الصحراء

يذكّرني المشهد الحي بالمهرجان الدولي لموسيقى الصحراء الذي يشرف على تنظيمه مركز طارق بن زياد للدراسات والأبحاث، وهو حَدَثٌ، يشكّل، مع سواه من مهرجانات واحتفالات تقليدية، ركيزة تدعم البنية الثقافية والفنية لمنطقة تافيلالت. الهدف من المهرجان على حد قول

مدير المركز الدكتور مصطفى تيليوا هو خلق دينامية ثقافية واقتصادية، لإنعاش الطاقات، وفتح آفاق جديدة أمام سكان المنطقة. يقوم المهرجان على ركيزتين، أولاهما نفض الغبار عن فنون الصحراء الموسيقية، ولفت الانتباه إلى ما تختزنه صحراء تافيلالت وواحاتها من إمكانات طبيعية وبشرية، تؤهّلها لاستقطاب رءوس الأموال الوطنيـة والأجنبية.

ها نحن نصل إلى مرزوكة في واحة زيز، حيث يقام المهرجان سنويًا، في خاتمة رحلة وادي زيز، عبر طريق العجائب المغربية. تكتنز منطقة تافيلالت برصيد هائل وزخم لا ينقطع من المشهدية البديعة، تتجلّى في كثبان مرزوكة التي تُعدّ ملتقى للطبيعة والتاريخ والفنّ. تبعد مرزوكة عن مدينة الرشيدية نحو ١٥٠ كلم، وأقرب مركز حضاري لها هو مدينة الريصاني، وتقع على بُعد ٤٠ كلم، وخلال أيام المهرجان ولياليه الثلاثة تفدُ الآلاف من هنا وهناك، لتعانق التجارب الفنّيّة الثقافية من قارّات العالم. هنا تُولَد من جديد موسيقى الصحراء في فضاء صحراوي خالص. وعلى الكُثبان الرملية تُوحَّد الموسيقى العربية والفرنسية وسواهما في لسان عالمي واحد.

على كثبان رمال واحة زيز في مرزوكة نُقشتُ اسم "العربي". كأنه توقيع بالوصول إلى مكان وَحّدت موسيقاهُ العالمَ. تكاد السماء بعد الغروب تقترب بنجومها. تكاد الرياح تحمل صوت الموسيقى التي عزفها المشاركون في المهرجان خلال السنوات الماضية، مختلطًا بصوت حداء القوافل التي عبرت بين المشرق والمغرب خلال القرون البائدة. غاب المنشدون، وتوقّفت القوافل، ودرست المُدُن، وبقي الإنسان يجدّد العهد مع الحياة، ليكون وحده العجيبة الخالدة.

من شفشاون إلى تطوان:
على خطى السِّتِّ الحُرَّة

لا يأتي الزائرُ تاريخَ المغرب أو يتصفّح مُدُنَه إلا وتصادفه رائحة عطرة لنسائه اللائي صنعْنَ تاريخًا استثنائيًا، ليس فقط بعلومهنّ وفنونهنّ، بل بقدرتهنّ على إدارة شئون بلادهنّ. ولعلنا . نحن المسافرين بين مدينتي المملكة المغربية الشماليتين؛ شفشاون وتطوان. نتعرّف أكثر إلى امرأة وُلدت في المدينة الأولى، وحكمت المدينة الثانية، لكن التفاصيل عن الستّ الحُرّة تتداخل، لثراء العلاقة بين الإنسان والمكان، واتّساع المسافة بين الواقع والخيال، حتّى لتكاد سيرتها تتحوّل إلى أسطورة أكثر من كونها شخصية حقيقية مُؤرَّخ لها، في المغرب العربي، وفي أوروبا، على حد سواء. يكفي أن تتصفّح كتابًا، عنوانه "المرأة في تاريخ الغرب الإسلامي" للعلامة المغربي الدكتور عبد الهادي التازي، لتدرك كم فاتنا نحن في الشرق العربي الكثير عن هؤلاء النسوة، اللائي كنّ حكيمات، وحاكمات، وعشنَ طبيبات للجسد، ومطربات للروح، وعُرفنَ كعالمات وموسيقيات، وعملنَ كسفيرات وكاتبات، ومنهنّ بالطبع شاعرات وفنّانات.

نحن على أعتاب نهاية القرن الخامس عشر الميلادي، في بيت الأمير علي بن موسى بن راشد، قائد مدينة شفشاون، ومخطّط عمارة قصبتها. ترى النور عينا ابنة نجيبة، في غرّة القرن العاشر الهجري، فيقدّم لها أبوها حين تصبح صبية ما تقدّمه بيوت النخب من فرص للعلم، فينتخب لها علماء المدينة وفقهاءها، يوسعون من مداركها ومعارفها؛ هي وشقيقها إبراهيم.

أكان اسمها الحُرّة؟ أم أن اسمها كان عائشة، كما تقول الوثائق الإسبانية، والبرتغالية، وأن "الحُرّة" لم يكن إلا لقبًا! لعلّي أجمع الاثنين، فقد كانت عائشة وستظل حية تعيش في التاريخ، وهي أيضًا الحُرّة، بما أنجزته في ملكها.

يقول المؤرّخ محمّد داود إنها لُقّبت بالحُرّة تمييزًا لها عن الإماء، لأن الناس في ذلك العصر كانوا يُكثرون من التسرّي بالجواري، ويقول الباحث عبد القادر العافية إن أبوي الست الحُرّة اهتديا إلى هذا الاسم تيمّنًا بملكة غرناطة الذائعة الصيت، ولكن، علينا أن نواصل البحث.

ومثل ابنتها، تتعدّد تفسيرات اسم شفشاون، فهل اشتُقّ اسمها من اللغة البربرية، لتعني محال طالعة للجهاد، أم أنها مأخوذة من الشفشان بمعنى الاختلاط، أو محل نزول المجاهدين، أم تفسيرها يعود لاسم قبيلة كانت تسكن المنطقة قديمًا؟ ولعلّي أتفق مع ما ذهب إليه أغلب المؤرّخين في أن اسم شفشاون مركّب من كلمتين؛ الأولى هي "شف" بمعنى: انظر، والثانية "إشاون" جمع كلمة "اش" الأمازيغية التي تعني "القرن"، وتُطلَق في العادة على قمّة جبل حادّة، أي انظر إلى قمم الجبال.

أي أن شفشاون، كما يحكي الأديب والتشكيلي المغربي محمّد أبو عسل، تحمل اسمًا، اختاره له الأمازيغيون. قبل أن يخطّط الأمير علي عمارتها الجديدة كانت لها عمارة أخرى، ويقال إنه سأل عن المدينة، فقيل له إن فيها رجلًا عابدًا، ثمّ سأل عن اسمه، فقال له أهل البلد: إنه الوَليّ الصالح "سيدي بوخنشة".

شاور الأمير العابدَ في الدخول إلى المدينة، ليسكنها: فسمح له بالدخول، ولو لم يأذن له لما دخل، دخل الأمير علي بن راشد شفشاون، وسكنها هو ومَن كان معه من العساكر وأهل مشورته، واجتمعت عليه

القبائل، وهناك أدارت إمارة الرواشد شئوون نفسها دون الاعتماد على مركزية الدولة في فاس، وكان هناك اتصال وطيد وتعاون حربي مع الأمير محمّد الشيخ الذي التجأ إليه، ليدعمه في أثناء الدفاع وصدّ الهجوم البرتغالي القريب من الشواطئ الشمالية، وهناك كوَّنت إمارة بني راشد، ولواء مرتين، ولواء ترغة، صفًّا واحدًا من أجل ردّ البرتغاليين على أعقابهم.

قصبة شفشاون

نصعد قصبة شفشاون، مع الأديبين الدكتور شرف الدين ماجدولين، وعبد الرحيم العلام، وزميلي المصوّر سليمان حيدر، مارّين بالسوق التقليدية، حيث توقّفنا، لأتمكن من شراء ما أحبّ أن أحتفظ به دائمًا: الموسيقى التقليدية للأماكن التي أزورها. لقد أعدّ ماجدولين ذكريات الأديب الفنان محمّد أبو عسل في كتاب "ذاكرة مدينة، شفشاون: وقائع ومرويات"، عرَضَ لطرفٍ من سيرة موسيقى شفشاون، ومنها الطقطوقة الجبلية، التي تعتمد على أدوات تقليدية، هي الكمان والكمبري والطبل والدربوكة والطار.

سنمرّ صعودًا بالمكان الذي يستضيف الموسيقى الصوفية سنويًّا، في منطقة تعدّدت فيها الأجواق "جمع جوقة"، وألّف لموسيقاها الشيوخ قصائدهم بالزجل الشعبي المحلي، وكان يظهر مع العازفين والمنشدين "الزفان"، أي الراقص، "وربما اشتُقّت الكلمة من لفظة الزفة"، وفي البادية، لا يمكن أن تمرّ أعراس أو أفراح إلا بأجواق العيطة الجبلية، وهذا بالمقابل معادل موضوعي لاستقدام الغناء الأندلسي في المدينة لإحياء الأفراح.

كانت هذه الطقاطيق تحضر دائمًا في كل المواسم التي تقيمها القبائل في المقامات، سنرى في متحف يحمل اسم الست الحُرّة تاريخ وصور هذه المقامات وحجاجها، مَدَد، يا سيدي عبد السلام بن مشيش، مَدَد، يا

سيدي يلصوت، مَدَد، يا سيدي بن سعادة، ومَدَد، يا سيدي أحمد العالم.

بضاحية المدينة بجبل العلم أو جبل قبيلة ابن عروس مرقد سيدي عبد السلام بن مشيش "توفي ٦٢٢ هجرية/١٢٢٤ميلادية" وهو شيخ الإمام أبي الحسن الشاذلي "توفي ٦٥٦ هجرية /١٢٥٨ ميلادية" الذّي امتدّت مدرسته شرقًا وغربًا ثمّة هناك مجالس للإنشاد والسّماع الصوفيين. وقد مرّ بذاك الجبل رجال علم وصلاح وحَفَظَة للذِّكْر الحكيم والسّنن النبويّة، كما رابط به. كما يقول صديقي الباحث التونسي في تاريخ التصوّف محمّد الكحلاوي. رجال بَرَرَة يذكرون اسم الجلالة، ويُكثرون من الصّلاة على النبيّ المصطفى، عليه أفضل صلاة وأذكى سلام، ويُحسنون لعابري السّبيل، ويُكرمون ضيافتهم، ويُوقونهم من أخطار الطّريق وأهواله. إنها الظّاهرة، وُجدت في الأندلس وشمال بلاد إفريقيّة من قبل.

في الطريق عبر الدرب الجبلي الذي يشبه شرايين شجرة شاهقة البياض تزيّنها زهرات اللون الأزرق للأبواب والنوافذ في البيوت، نلمح أن بعض هذه البيوت تُحوَّل مثلاً إلى مؤسّسة للتعليم الأوّلي، أو فنادق لإقامة السيّاح، ونلحظ كيف ينشر أهل شفشاون الملابس، يجفّفونها بجانب سجاجيد فرو الغنم يشمّسونها، نرى كيف يوفّر البعض أسبلة للعابرين، لإطفاء الظمأ، ونمرّ بصحون الأطباق التي تلتقط القنوات الفضائية، نرقب حياة كاملة في الجبل، تحسبه نائمًا، فإذا نبضه حيّ، ولكنه مسالم مثل قطّ أليف.

عيون ماء شفشاون

من موقعنا، نستطيع أن نرى كيف تحيط مدينة شفشاون جبال تطرّزها غابات أشجار الفلّين والأرز والشوح. يستفيد سكان البادية من هبة الخالق في أرضه، مثلما ترعى دوابهم وقطعانهم في حزام أخضر من الطمأنينة والعشب.

يعتدي البعض أحيانًا على بقايا الأخشاب اليابسة التي أهلكتْها الرياح العاتية أو الأمطار الطوفانية، ولكن الغابة مثل العنقاء تنهض من أرحامها أشجار جديدة. تمامًا مثل العين التي روتْنا أعلى الجبل من مائها البارد. الكل يسجّل لحظة وصوله إلى هناك، يضع الثمار لتبرد وتتطهّر بفعل تيار الماء، ويضع الزجاجات لتملأها المياه، والشلال هادر يبرد الجو بصوته ورذاذه، حتّى لو كنا في قلب جمر الصيف.

عيون الماء في شفشاون كثيرة، كانت مصدر الحياة لأهلها قبل أن تأتي التكنولوجيا الآلية بالماء للبيوت، يحكون عن عين النفايس بحومة السويقة، وقد سُمّيت كذلك لأن المرأة إذا وُلِد لها طفل تشرب من هذا الماء لأجل الشفاء، وعين باب العين الأصلية الكبرى، وكانت تحيط بها أرض واسعة، بنى بها المعسكر الخليفي عند دخول الإسبان، وسُمّيت عين بوخنشة. كما كانت هناك عين باب الحَمَّار، وتُدعى. تصغيرًا وتدليلاً. باعوينة الحاج العسلاني، أحد أعلام الصوفية، وقيل إنه شرب منها، فسُمّيت باسمه، ولها اسم آخر يرتبط بالحاج القطراني صاحب أحد المقامات بالمدينة.

أمام أشهر العيون، وقفنا على قمّة المنتزه الوطني تلاسمطان، الذي يبلغ طوله ١٢ كيلومتر، ويوفّر للتمشية فرصة التجوّل ١٢ ساعة متواصلة، بما يسمّى المدار الجبلي غمارة، وضمّ دائرته شفشاون، مشكرالة، تسوكة، ساحة إسبانيا، باب تازة، قبل العودة مرّة أخرى إلى شفشاون، لتكتمل الدائرة. جلسنا حيث وُضعت لافتة نادرة، تقول: في فاتح محرّم عام ١٣٠٧ موافق ٢٨ غشت سنة ١٨٨٩ تشرّف هذا المكان بجلوس جلالة السلطان الأعظم مولانا الحسن، فأصبح تذكارًا ومزارًا. وجُدّد هذا التذكار بمناسبة تشريف جلالة الملك الحسن الثاني لهذا المكان في ١٥ ربيع الثاني عام ١٣٨٢ موافق ١٥ شتمبر سنة ١٩٦٢ .

بعد أن ننزل، نمرّ بمشروع رائع، هو رصف أزقة المدينة العتيقة لتغطية مساحة ٧ آلاف متر مربّع، تقوم به وكالة إنعاش وتنمية الشمال، ضمن برنامج التنمية الحضرية لمدينة شفشاون.

حضرة الشفشاونيات

نجلس في شرفة مقهى الفندق عند سفح تلك المدينة الجبلية. تضع النادلة في مشغل الأسطوانات بسمّاعاته المجلجلة أغنياتٍ عربية، كنتُ أودّ أن أقول لها: لقد تركنا هذا الغناء وراءنا، نريد أن نستمع إلى الحضرة الشفشاوية!

اكتفيتُ بشراء أسطوانات سماعية للحضرة، ويمّمتُ صوب الجبل مع ماجدولين والعلام وحيدر. لكن الحضرة التي افتقدناها في وطنها، جاءت إلينا، وتلك بعض من نفحات مدينة أصيلة، وموسمها الثقافي، التي استضافت حضرة الشفشاونيات في أمسية تاريخية. إن شفشاون تحافظ بإخلاص على التراث الحضروي النسائي، وتُلقّب منشداتها وعازفاتها بالفقيرات، فهناك فقيرات الزاوية الدرقاوية وفقيرات الزاوية الشقورية وفقيرات الشرفاء الريسونيين اللائي يقمنَ بإحياء المناسبات الدينية كعيد المولد النبوي الشريف. ومرّة أخرى تعاود سيرة النساء تتواتر بقدرتهنّ على الحفاظ على الهوية، وكأنني في كل خطوة أتذكّر ما أوحت به الست الحُرّة إلى بنات مسقط رأسها.

بعد نزولنا. عبر درب آخر. وصلنا المتحف الإثنوغرافي بالقصبة التاريخية في ساحة "وطاء حمام"، التي بناها عام ١٤٧١ ميلادية والد السيدة الحُرّة الأمير علي بن راشد. كانت القصبة هي النواة الأولى للمدينة، ومركز الحكم بها. المتحف نفسه بُني في العام ١٩٨٥ ميلادية، وقوامه قاعتان أساسيتان، تضمان مجموعات متحفية، وقطعًا فنّيّة تمثّل رحلة خمسة قرون للثقافة

الوليدة من رحم ثقافات، تلاقحت، جاء بعضها من الأرض الأمّ، فيما ورد البعض الآخر من الأندلس؛ بمُسلميها ومَسيحييها ويهودها، ممّن استوطنوا المدينة وعمروها منذ نشأتها في الربع الأخير من القرن الخامس عشر. هنا أيضًا تُقام في إهاب التاريخ احتفالات ثقافية، ومنها في الصيف المهرجان الوطني للشعر المغربي الحديث، الذي يقام بتنظيم جمعية أصدقاء المعتمد "يُقصد به المعتمد بن عباد، ملك أشبيلية في عصر ملوك الطوائف، وهو من بني عبّاد، وُلد في باجة التي تقع في البرتغال حاليًا، وتوفي في أغمات قرب مراكش بالمغرب ٤٣١ - ٤٨٨ هجرية / ١٠٤٠ - ١٠٩٥ ميلادية" ودعم من وزارة الثقافة.

مع الست الحُرّة إلى تطوان

رأيتُ الصور في المتحف لنساء يرتدينَ أزياء تقليدية، كنتُ كمَن يبحث عن وجه السيدة الحُرّة، هل هي تشبه هذه أم تلك؟ ربّما لم يكن الوجه حاضرًا، ولكن معرض الأزياء يقدّم صورة لخزانة ملابس الأميرة، ومجموعة الحلي ومجوهرات تقدّم بعضا ممّا تكون قد ارتدت مثله، وقد كانت الفضة قوام معظم زينة المرأة.

سنغادر شفشاون على خطى الست الحُرّة إلى تطوان؛ إذ إن الحُرّة ابنة الأمير حين بلغت سنّ الثامنة عشرة، وكعهد قائد عسكري يبحث عن دعم جبهته الداخلية بواصر عائلية، يُزوِّج الأمير ابنته لقائده المنظري الثاني، وهي مصاهرة، قصد بها مساندة جبهة الجهاد ضد التدخّل الأجنبي للثغور الشمالية.

ولكن، من هو المنظري؟ من القصص الموريسكية "الموريسكيون أو الموريسكوس بالقشتالية مسلمو الأندلس ممّن تمّ تعميدهم قسرًا بمقتضى مرسوم ملكي مؤرّخ في ١٤ فبراير ١٥٠٢ ميلادية" تبرز قصة "ابن سراج

وشريفة الجميلة" بدلالاتها، وقيمها، وربما بجذور عائلة المنظري نفسه.

اختلف النقّاد في التعرّف إلى شخصية مؤلف قصة ابن سراج، سواء كان مسيحيًا دفع له النبلاء مالًا حتّى يُظهر الموريسكيين بشكل طيّب، فيتعاطف معهم الناس، وهكذا لا يتم طردهم من إسبانيا، أو أنه نفسه موريسكيّ أراد أن يدافع عن بني وطنه، وأن يُظهر إيجابياتهم ردًّا على وصف الأدبيات الإسبانية لصورة المسلمين السلبية.

تحكي القصة كيف أن فتى مسلمًا من بني سراج كان في طريقه للقاء خطيبته "شريفة" الجميلة، يمرّ بمنطقة يسيطر عليها المسيحيون، فيعترضه فرسانهم، ويصرع منهم ثلاثة، فيفرّ الرابع طلبًا للنجدة من القائد نارباييث.

يأتي القائد، ويهزم الفارس المسلم الذي أنهكتْه المبارزات السابقة، فيهزمه. يقول ابن سراج للقائد المسيحي إنه انتصر عليه، لا لتفوّقه في القوّة، ولكن، لأن الله أراد أن يمنعه من رؤية محبوبته شريفة. وبعد حوار بينهما، يُطلق القائد سراحه لمدة ثلاثة أيام شريطة أن يعود بعدها إليه.

بعد أن يلتقي ابن سراج محبوبته، ويتزوّجها، يعود معها إلى مكان القائد نارباييث، حيث ينتظره الأسْر. يُعجَب القائد المسيحي بوفاء المسلم، فيطلق سراحه بلا فدية. ويتوجّه الزوجان إلى بلدهما، ويرسلان إلى القائد المسيحي هدية، تتكوّن من أسلحة وجياد وعملات ذهبية. يقبل القائد المسيحي الأسلحة والجياد، ويردّ إليهما العملات الذهبية شاكرًا، وهكذا تنشأ بين المسلم والمسيحي صداقة تدوم مدى الحياة.

في كتاب: المنظري الغرناطي مؤسّس تطوان، الذي ترجمة ممدوح البستاوي يلخّص الكاتب جمال عبد الرحمن فكرة المؤلف الإسباني عن عروس غرناطية، تستوقفتها مجموعة جنود إسبان مسيحيين وهي في

طريقها لكي تُزفّ إلى زوجها الفارس المسلم في المغرب. وقد تحلّى القائد المسيحي بشيم الفرسان، وأفرج عن العروس التي واصلت طريقها. اعتبارًا من ذلك التاريخ، نشأت علاقة ودّية بين فارسين نبيلين، أحدهما مسيحي إسباني ، والآخر مسلم غرناطي، كان قد هاجر لتوّه إلى المغرب.

أما الفارس المسيحي، فهو السيد إنييغو لوبيث دى ميندوثا، ماركيز مونديخار وكونت تينديا، والمسلم الغرناطي هو أبوالحسن علي المنظري، قائد قلعة بينيار الغرناطية الذي أسّس أو أعاد تأسيس مدينة تطوان المغربية، والفتاة التي ظهرت في القصة الموريسكية إذن هي النموذج الأدبي لفاطمة خطيبة علي المنظري. وفي الكتاب نفسه تأتي سيرة الست الحُرّة كزوجة أخرى، ربّما كانت بعد وفاة فاطمة، وربّما كان المنظري قد هرم، فهو لم يعشْ بعد هذه الزيجة إلا سنوات.

لكن، علينا أن نؤيّد تفسيرًا آخر، بأن زوج فاطمة المنظري الأوّل، ليس هو زوج الحُرّة، حيث تدلّنا الوثائق على أنه كان بتطوان في أوائل القرن العاشر الهجري منظريان اثنان: أوّلهما هو القائد الغرناطي الشهير أبو الحسن المنظري الذي جدّد بناء تطوان وتولّى الحكم بها في أواخر القرن التاسع الهجري، والآخر حفيده الذي تولّى حكم تطوان من بعده، ولا شك أن الذي تزوّج الست الحُرّة هو الحفيد، لأن الجدّ كان توفي وهو شيخ كبير في حياة والدها.

مَثَّل انتقال "الحُرّة" إلى تطوان صفحة جديدة من كتاب الخلود فُتحت لها، فقد كان المناخ الأندلسي المثقّف الذي احتكّت به امتدادًا للثقافة الرفيعة التي نشأت عليها. تُنجب الحُرّة ابنة واحدة، لا يُخبرنا عنها التاريخ شيئا سوى أنها تزوّجت المنظري الثالث حفيد المنظري الأوّل الذي توفي سنة٩٤٦هجرية.

المنظري زوج الحُرّة، وكأيّ رجل وطني لم يكن راضيًا عن احتلال البرتغاليين لمُدُن الشمال المغربي المتاخمة، من طنجة، وأصيلة، إلى سبتة والقصر الصغير، وسواها. ولعل المحن التي ألمت بالبلاد، والمعارك التي شهدتْها القوّات المدافعة، كانت وراء نضج فكر الست الحُرّة، حتّى نجزم أنها كانت مستشارة زوجها وناصحته في ما كان يجري من أمور الحرب والقيادة، فتمكّنت أن تتولّى شئون الحكم في فترات غيابه عن المدينة، ممّا أكسبها خبرة وتجربة كبيرتين.

بنت غرناطة

في تطوان، ومُدُن الشمال المغربي؛ أعمِّها، تجد ذلك الحسّ الأندلسي يرافقكَ أينما ولّيت وجهكَ، وأنَّى أرسلتَ خُطاكَ. يدخل بنا الأديب عبد الرحيم العلام إلى متاهة مسقوفة، وكأننا حروف من كلمات فوق سطور من كتاب. علينا أن نعبر السوق والبيوت الأندلسية التي تتوسّطها نافورات الفسيفساء، بدءًا من باب المقابر حتّى باب الخروج إلى النهار. القيظ يهدأ، وتشتعل الحواسّ، نرتوي بماء من محل أوّل.

أحسستُ أنني وسط متاهات بورخيس، تذكّرتُ الحكايات الأسطورية، عن ذلك الصبي الذي يخشى التيه في الغابة، فأخذ يلقي قطع الخبز وراءه حتّى يعود على هديها لدار الأمان، وبدأت أصوّر العلامات التي تُصادفنا، لأسماء المحال والحارات التي نمرّ بها، فربّما ضللنا الطريق، فنعود بهدي الصور: فندق النجار، زنقة أحفير، سباط العدول، فرّان المسلس، الملاح البالي، سلوقية سيدي الصعيدي "هل جاء من مصر؟!!"، الشرشار، باب العقلة، إسقالة، ... وهكذا.

العمارة الشبيهة بقصور الحمراء التي أنشأها التطوانيون لدى هجرتهم جعلتْهم يلقّبون المدينة "تطوان بنت غرناطة"، حتّى إن حديقتهم الأشهر

"رياض العشّاق" تأسّست في سنة ١٩٢٢ ميلادية على الطراز المعماري لقصور الحمراء، بكهوفها الصخرية تجد على أبوابها أشجار العرعار، والشلال الصناعي الذي يسيل ماؤه نحو نافورة، تتوزّع حولها أقواس عمارية دقيقة، وتتوزّع هنا وهناك كراسي أسمنتية مطرّزة بالفسيفساء الخزفية "يسمّونها محليًا بالزليج، الذي يتميّز بصغر حجمه، وتنوّع رسومه أندلسية الأصل"، وتشمّ رائحة اللارنج، وتتناهى إلى سمعكَ طيور الكناري، ليكتمل المشهد الأندلسي، ولا يبقى إلا أن تسمع قصيدة لشاعري الأندلس الولادة بنت المستكفي وحبيبها ابن زيدون، وأنت تشرب الشاي بالنعناع، في فناجين خاصة. يتذكّر الكبار مشاريب محلية، كانوا يشربونها صغارًا، انظر إلى أسمائها تعرف جنات طعمها: الكوثر، الأطلس بطعم البرتقال، الفرات، الغزالة. تغيّر كل شيء، حتّى اسم الحديقة "رياض العشّاق" استبدل اسم: حديقة مولاي رشيد.

أسوار القصبة

نمرّ بالأسوار الشاهقة للقصبة التي تمّ بناؤها في العهد المريني خلال القرن الثالث عشر الميلادي، أما أسوار المدينة، فبناها الأندلسيون الذين هاجروا إلى تطوان بنهاية القرن الخامس عشر. إنها الأسوار التي حصّنتها الست الحُرّة، لتحمي المدينة التاريخية ضد هجمات الإيبيريين. بُنيت أسوار المدينة، واتّخذت أبوابها أسماء، تبدّلت في أثناء عهد الحماية الإسبانية على المغرب "١٩١٢ـ١٩٥٦ ميلادية"، ومن أسماء أبوابها اليوم "باب العقلة" و"باب المقابر".

قبل أكثر من ثمانية قرون، حين بدأت هجرات الأندلسيين إلى تطوان، وشقيقتها شفشاون، وغيرهما من البقاع التي تحمل آثارهم، كان هؤلاء المهاجرون، من المسلمين، والإسبان المسيحيون، واليهود، حرفيين،

وعلماء، قُضاة وفقهاء. أنىَّ لكَ أن تعرف من أين جاءا إلا إذا طالعتَ أبوابهم؟ إن حدوة حصان ستُمثّل إشارة أن سكان البيت قدِموا من أشبيلية، كما أن ثمرة رمّان هي علامة الآتين من غرناطة.

حين كنتُ في قرطبة رأيتُ أمام أبواب البيوت مشاحاتٍ صغيرة، بها مقعدان، أو أكثر، مخصّصة لضيوف، يتسامرون بعيدًا عن خصوصية البيت، وقد رأيتُ ذلك في تطوان، على شكل محلّ أو دار صغيرة، ملحقة بالبيت، وهي أصلية وأثيرة عند الحرفيين، "مثلها كان في مدينة العرائش المغربية كذلك" لأنها الدار التي يجلس الحِرَفيُّ فيها للعمل نهارًا، ويسهر للسمر ليلاً مع الأصدقاء من روّاد محله، للغناء، مردّدين أغنيات تطوانية قديمة، على آلة عود، لا بد من تواجدها بدار كل تطواني، قديمًا.

فنون تطوانية

إذا لم يسهر التطوانيون في تلك الدار الصغيرة صيفًا، فهو موعد الربيع الذي سيذهب بهم إلى نهر المحنش، والذي يُسمّى بوادي مرتيل، ذي الطبيعة الساحرة، وصور الزهور الآسرة برياحينها العطرة، خاصة حين يجلسون بالجهة المقابلة للنهر، في سفح جبل غرغيز، يغنّون تحت الياسمينة، كأنها تلك الأغنية التي غنّاها المطرب المصري محمّد منير في ألبومه طعم البيوت،: "تحت الياسمينه في الليل/ نسمة والورد محازيني/ الاغصان عليَّ تميل/ تمسح لي في دمعة عيني. تحت الياسمينه اتكيت "اتكأتُ"/ عدلت العود وغنّيت/ وتناظر دمعي وبكيت/ فكرتك كيف كنت تجيني. جنينه مزينها النوَّار/ فاحت من ريحة الأزهار/ فكرتك شعلت النار/ عملتله لهيبه في قليبي"، وهي أيضًا أروع بصوت المطرب التونسي الهادي الجويني.

والموسيقى تجري في عروق التطوانيين مجرى الدم، ومن أشهر أعلامهم

الموسيقار مصطفى عائشة الرحماني الذي وُلد في تطوان سنة ١٩٤٤ ميلادية، وتفرّغ للموسيقى دراسة وبحثًا بعد إتمام دراسته الثانوية، بدءًا من التحاقه بكونسرفتوار تطوان سنة ١٩٥٧ ميلادية، دارسا الموسيقى على أيدي أساتذة إسبان، إلى أن عُيّن أستاذًا لمادة الهارموني بالمعهد الموسيقي بتطوان سنة ١٩٧٢ ميلادية، ومن أشهر أعماله الموسيقية التي أحصاها له تلميذه الموسيقار أحمد حبصاين: متتالية جبلية للبيانو، عُزفت وسُجّلت لأوّل مرّة براديو كولونيا بألمانيا، بلاطيرو وأنا، فراشات بيضاء للبيانو، عُزفت لأوّل مرّة بطنجة، لحظات حبّ على ضفاف الدارو للقيثارة، عزفها لأوّل مرّة القيثاريست حبصاين نفسه، الذي أشرف على عزفها في المباراة العالمية للقيثارة براديو فرنسا سنة ١٩٨١، وبأثينا، والأندلس ذكريات للقيثارة، عُزفت وسُجّلت لأوّل مرّة باستديو سونيا ديسك بالدار البيضاء، واللقاء العالمي للقيثارة براديو فرنسا سنة ١٩٨٦، وأديوس اسيكوبيا للقيثارة، وورقات ألبوم " ريما، بلادا، بريلوديو" للبيانو عُزفت وسُجّلت لأوّل مرّة من طرف أستاذه عازف البيانو رفاييل بريطو صولير ١٩٧٢.

كما قدّمت متتالية الموسيقار مصطفى عائشة "قوس قزح" كولونيا، ألمانيا، وسيمفونية عاشوراء، وعطيل ودزدمونة، وملامح بسيكوسيمفونية، وبالي اختطاف بوسيرفينة، وأوبرا قنديشة وقدور، وعشق المعتمد "مونودراما للسوبرانو والأوركسترا بنص الإسباني سيرخيو ماسياس، وعدد من الأعمال الموسيقية والغنائية والمؤلفات الأدبية الأخرى جعلتْه يحظى بوسام العرش حين أُحيل إلى التقاعد سنة ٢٠٠٤ ميلادية من قِبَل الملك محمّد السادس.

ويبدو أن للفنّ مكانة خاصة في تطوان، ليس الفنّ الموسيقي وحده، وليست الأعلام المغربية والإسبانية وحسب، فقد عرفتُ أن الفنان

التشكيلي حسين بيكار "مواليد ٢ يناير ١٩١٣ميلادية، وكان أوّل طالب بمدرسة الفنون الجميلة العليا بالقاهرة بعد أن آلت تبعيّتها إلى وزارة المعارف، وتخرّج فيها سنة ١٩٣٣ ميلادية" تمّ انتدابه في عام ١٩٣٩ميلادية للتدريس بالمعهد الخليفي بمدينة تطوان بالمملكة المغربية، التي كرّمت بيكار بمنحه وسام الاعتزاز.

وللفنّ التشكيلي أيضًا بتطوان هناك المعهد الوطني للفنون الجميلة، وهو مؤسّسة عليا للتكوين في مجال الفنون التشكيلية، البصرية والتطبيقية تأسّس سنة ١٩٤٥ ميلادية كأوّل مدرسة بالمغرب مختصّة في تدريس الفنون التشكيلية من رسم، ونحت، وصباغة، وحفر، تحت اسم المدرسة الوطنية للفنون الجميلة، دشّن بنايتها سنة ١٩٥٧ ميلادية الملك محمّد الخامس، وقد صدر سنة ١٩٩٤ ميلادية، قرار وزاري بتحويل المدرسة إلى معهد وطني، يتم فيه قبول الطَّلَبَة الحاصلين على شهادة الباكالوريا، وذلك في إطار سياسة وطنية شاملة لتفعيل التعليم الفني الجامعي، وتخريج أفواج من الفنّانين المغاربة بمستوى التعليم العالي.

بين متحفين

يُطلق ناس تطوان على بساتينهم اسم "الغرسة"، ألا يغرسون ما بها؟! والغرسة تضم دارهم، مثل شمس في قلب المجرة، شعاعها غصون ياسمين هنا، وعنبر هناك، ولا أحكي لك عن السوسن والحبق، الذي يطير من الأغنيات إلى البستان، خاصة في الربيع. الباب مغطّى بالعريش، الذي يقي الواقف والسائل أمامه، والجالس على الرصيف تحته، من شعاع الشمس، في الصيف اللاهب الذي كنا فيها. النوافذ أصغر، للسبب نفسه.

بُعيد الغرسة، ومن أجمل نقاط الاهتمام بمدينة تطوان متحف الآثار،

الذي أُنشئ سنة ١٩٣٩ ميلادية قرب "ساحة الفدان"، عند عناق المدينة القديمة بالحيّ الإسباني الجديد.

يضمّ ذلك المتحف الأثري بقايا أركيولوجية وأثرية، ومعروضات نادرة، وحليًا تقليدية من الأساور والخواتم والمرايا البرونزية، وزينة العظم، وعقود عجائن الزجاج، وحلقات الذهب.

لكن متحفًا مفتوحًا غير بعيد من حدود المدينة كان يكشف أسرارًا مفاجئة. كنا بصحبة جديدة للباحث المخضرم الدكتور محمّد بن عبود الذي يرأس جمعية تطاون أسمير للتنمية الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والرياضية، التي تأسّست في ٣١ يناير ١٩٩٥. والمهمّ في السياق كما يحدّثنا بن عبود هو اهتمام الجمعية بتطوان الأمس واليوم والغد. فهي ترمّم الدروب، وتدرس مستقبل المدينة، وتعالج مشكلات الحاضر المختلفة، ويُقام برنامجها السنوي بعنوان تطوان الأبواب السبعة، لتكريم المساهمين في ثقافة المجتمع التطواني، وكذلك لمناقشة أمور حياتية كالاستثمارات وشبكة الطُّرُق ومستقبل قطاعَي والصناعة التقليدية. والتحضير لأنشطة مواسم، كشهر رمضان، الذي يشهد توزيع هدية رمضان على المحتاجين والمعوزين، وسهرة السماع الصوفي بتنسيق مع الطريقة البودشيشية.

والطريف أيضًا قيام الجمعية بتأسيس مدرسة الشطرنج التي تستقبل الأطفال الصغار، لتعليمهم أبجديات هذه الرياضة الفكرية. لكن ما تُعنى به أكثر هو الوجه الحضاري للمدينة ضد ما يسوءها من مشاهد احتلال الباعة المتجوّلين لأهم الشوارع والميادين، والبناء العشوائي، وتشويه معالم المدينة القديمة. ويتلخّص برنامج إنقاذ المدينة في تنظيم التجارة بالمدينة، وتهيئة المقابر الإسلامية، وإنشاء مقبرة جديدة خارج المدينة، وتهيئة ساحة الغرسة الكبيرة، وتأسيس متحف المطامر بعد ترميم جزء منه،

وإنشاء وكالة مستقلّة لإنقاذ مدينة تطوان العتيقة وإنعاشها، يكون دورها الإشراف على تنفيذ مشاريع التهيئة والترميم والتنسيق مع المؤسّسات والجمعيات المحلية.

ويُعدّ الجانب الثقافي من ثوابت جمعية تطاون أسمير، ويناضل بن عبود ورفقته ضد تلاشي بعض معالم المدينة مثل فندق "درسة" وفضاء "الباشوية" الذي يمكن أن يوظّف في المجال الثقافي نظرًا لمعماره الأندلسي المغربي الجميل، والمسرح الوطني الذي يقال بأن يد الإصلاح ستمتدّ إليه، ليلعب دوره الفنّيّ والتثقيفي. وفي ميدان النشر والتأليف أصدرت الجمعية كتاب "معجم الرهوني للغة العربية العامية التطوانية: دراسة وتهذيب" لمؤلّفته زينب بن عبود. كما أصدرت كتاب الأناشيد الوطنية وقصائد الأمداح النبوية لمؤلفه الأستاذ عبد السلام الغازي الشيخ وأصدرت الجزء السادس من النعيم المقيم، وأصدرت طبعة جديدة ومنقحة للزاوية، ونشرت مؤسّسة" فيوليا " كتابًا عن تطوان، يحتوي على صور جميلة للمدينة ركّزت على شبكة ماء السكوندو على الأخصّ، ضمن إصدارات كثيرة.

اكتشاف تاريخي

المفاجأة التي أتحدّث عنها كانت حين قادنا بن عبود إلى المقابر التاريخية. استقرّت السيّارة عند حافة الجبل، بينما اتجه حيدر وبن عبود إلى أعلى مكان، وجذبتْني أنا الطُّرُق الترابية التي تحوّلت إلى ممرّات حجرية، تسعى بين شواهد القبور التاريخية. بدأتُ ألتقط الصور، هنا وهناك. فجأة، رأيتُ بالممرّ الحجري شريحة حجرية كبيرة ذات نقوش مثيرة، لم تكن تلك القطعة وحدها، ولكنها كانت تشي بما لا يدع مجالًا للشك أنها أحفورة من ملايين السنين، لأسماك جاءت من قاع البحر. إلى هذا التلّ وصل الماء يومًا، وطبعت على صفحة الحجر بصمته، بعد أن استقرّت بها صور الأسماك النادرة. قلتُ للدكتور بن عبود عن اكتشافي، فعرفتُ منه ما طمأنني بأن المكان كله ممنوع أن تلتقط منه الأحجار لتاريخيته، ولكنه ينتظر العلماء، ليتأمّلوا تلك الأحجار التي تُخبّئ الكثير، سواء كانت شواهد لقبور أعلام عاشوا من زمن السيدة الحُرّة، أو أسماك عاشت في العهود الغابرة. عدنا إلى السيّارة، وانطلقنا عائدين لقلب المدينة، قاصدين أحد أشهر مطاعمها. كان علينا أن ننسى الأسماك في الحفريات، لنتذكّر الأسماك في الطواجن، هكذا اجتمعنا حول مائدة بَحْرية القائمة لا تنسى.

وفي الطريق من المطعم إلى القصبة كان دليلنا يذكر لنا كيف اعتمد تخطيط المدينة العمراني على وجود درب ترابي يفرّق بين الفضاءات العمومية والشوارع التجارية، وتمتدّ شبكة الطُّرُق والحارات، لتربط فيما

بينها، وتضمن في الوقت نفسه حرمة أهلها وخصوصياتهم. يحكي عن الحِرَف الشعبية، وأشهرها صناعة الخزف، أو الزليج، الذي يُعدّ عنصرًا هامًّا في تزيين المنزل التطواني، وهو يعكس تأثيرات مختلفة في ألوانه وأشكاله، وأهم التأثيرات تيّاران: الأندلسي والريفي. ومن بين الصناعات أيضًا النحاس، الذي يعدّ قاسمًا مشتركًا بين المطبخ والغرف. كما أن الطُّرُز الخاصة بالزي التي يقدّم المتحف الإثنوجرافي بباب العقلة نماذج لها توضح التميّز، كما عَرف القفطان التطواني تميّزه بداية من القرن العشرين.

المتحف سيُعيدنا للتاريخ، ونتذكّر أنه بعد وفاة القائد المنظري الثاني عام ٩٢٥ هجرية، أصبحت مدينة تطوان خاضعة للأمير إبراهيم بن علي بن راشد حاكم شفشاون، وحين أصبح الأمير وزيرًا للسلطان المغربي أحمد الوطاسي وقائدًا لأركان حربه، نصب أخته الحُرّة حاكمة لمدينة تطوان، وهي بادرة تاريخية، فالقائد الحقيقي لتطوان وشفشاون هو الأمير، لكن أهل تطوان أنسوا لحاكمتهم التنفيذية، فقد عرفوا في حكمها. كما علّمتهم التجارب السابقة. حُسن التدبير ورجاحة العقل، حتّى إن الفقهاء والعلماء لم يثوروا ضدها، أو يتململوا من حكمها.

مصاهرة سياسية

وضعت الست الحُرّة جلّ اهتمامها في أن تكون مدينتها حُرّة، كسيِّدتها، فأولت الجانب العسكري الاهتمام الأكبر، وكان لها أسطول في مرتيل يتأهّب دائمًا للقيام بغارات ضد الإيبريين، ورتّبت للمدينة حراسة دائمة في أبراجها ضد التهديدين البرتغالي والإسباني.

ثمّ تأتي الحاكمة التطوانية، وعلى خطى أفكار أبيها المؤمنة بأهمّيّة المصاهرات السياسية، ولكن، بنقلة وثابة. كان أبوها الأمير قد زوّجها من قائده حتّى يُحكِم من قوّة حكمه ودفاعه، وها هي نفسها قد خطّطت

لزواجها الثاني من السلطان مولاي أحمد بن محمّد الوطاسي "٩٣٢ – ٩٥٦ هجرية" ابن السلطان محمّد الشيخ "٩١٠ – ٩٣٢ هجرية". وهنا نتوقّف عن الشك في اسم الست الحُرّة، أو التخمين بأنه مجرّد لقب، فقد ثبت أن اسمها في وثيقة الزواج بالسلطان هو "الحُرّة"، أو لنسرده كاملاً: الست الحُرّة بنت الأمير علي بن موسى بن راشد بن علي بن سعيد بن عبد الوهاب بن علال بن عبد السلام بن مشيش!

عُقد القِرانُ في مدينة تطوان بتاريخ ربيع الأول عام ٩٤٨ هجرية، الموافق للتاسع والعشرين من يونيو سنة ١٥٤١ميلادية. وحين عاد السلطان لعاصمة ملكه؛ مدينة فاس، لم يصطحب معه زوجته الحُرّة، بل بقيت في تطوان خليفة عنه، قائمة بشئون العلاقات الخارجية بين سلطانه وبين البرتغال.

اقتبس كاتب وثيقة عقد القران، العارف بكتاب الله والبليغ باللغة العربية آيات من القرآن الكريم، وأحاديث من السّنّة الشريفة، ليُسبغ جلالًا على عقد الزواج، وهو أمر ليس بمستغرب، لوثيقة، طرفاها سلطان سلسيل ملوك، وأميرة شريفة النسب. فبعد مقدمة الحمد والثناء، والإقرار بوحدانية الله تعالى وبرسالة رسوله محمّد صلى الله عليه وسلم، عرّف الكاتب بالأسرتين المتصاهرتين، ثمّ ذكر الصداق ومقداره، ومعجّله مؤجّله، ووصف ما اشتمل عليه من نقود وإماء وبغال وملابس، وذكر وَليّ هذا الزواج معرِّفًا به مثنيًا عليه، قبل أن يُذيَّل العقد بإمضاءات الشهود والقاضي.

يقول العقد عن بيت الست الحُرّة؛ بني راشد: بيت الشرف الذي تكاثفت حجب الصون على أكتافه، وأخذت عصم الطهارة بأوساطه وأطرافه، وانعقد الإجماع على صحّة شرفه، فلا يفوه أخذ بخلافه، وهو بيت الشريف الكبير المقدار، والحميد الإيراد والإصدار... حتّى يقول:

فخطب فيه ابنته الأصيلة البرّة المساماة بالحُرّة، أجمل الله صونها، وأحسن على طاعته عونها.

ونشير إلى مقدار الصداق ونوعه: على صداق مبارك، جملته بين قد أوجبتْه المياسرة إعجالًا، وكالئ اقتضتْه المكارمة أمهالًا: أربعة آلاف أوقية من النقرة الجارية السكية، وعشرون من البغال المتوسّطة في نوعها وحوائج تشتمل على ثوبي موبرة، وفضلتَي وجه إسكندراني وفضلتي غريض، وسنين وسبنيتين، وربع الماية وأربعة مناشف، وأربعة كنابش كل ذلك من الجديد العالي في جنسه!

هو البحر

تنطلق بنا السيّارة هذه المرّة إلى شاطئ البحر. أقام المغتربون العائدون في الإجازات أفراحهم. الموج يفصلهم عن شبه الجزيرة الأيبيرية، جاء أسلافهم من هناك هربًا، وها هم يعودون إلى المكان للعمل والمتعة.

تأمّلت الأمواج العالية، وذهب الخيال إلى أيام الست الحُرّة. كان البحر يموج بسفن تجارية، ومعارك، لا بد أن أسطول الست الحُرّة كان يشارك بها. فقد كان وجود تطوان في منطقة تُشرف على ملتقى الأبيض المتوسط بالمحيط الأطلسي، مع قربها من شبه الجزيرة الأيبيرية، ووقوعها بين عدة ثغور محتلّة احتلالًا أجنبيًا، جعل المدينة وحكّامها، وأخصّ هنا الست الحُرّة، في مرمى الخطر الدائم. كما كانت هناك حكومات تتصارع وإمبرطوريات تتنازع في الشرق والغرب. تزعمت الست الحُرّة حركة الجهاد في البحر ضد المسيحيين "وهو ما يُسمّى في الأدبيات الإسبانية والبرتغالية بالقرصنة البحرية".

وسط ذلك كله، كان كبار عائلة المنظري قد أحسّوا أن زواج الست الحُرّة من السلطان أحمد الوطاسي عقب وفاة زوجها المنظري حاكم هذه

المدينة، قد حرمهم من الحكم، وممّا يأتي به ريع القرصنة، فقاموا بمؤامرة للاستيلاء على حكم هذه المدينة، شارك فيها محمّد الحسن المنظري، الذي كان يسكن المدينة، ووالده القادم من فاس إلى تطوان.

تقول المصادر البرتغالية إنه في شهر أكتوبر سنة ١٥٤٢ ميلادية وهو الموافق لشهر رجب عام ٩٤٩ هجرية غادر السيد محمّد الحسن المنظري مدينة فاس هاربًا من السلطان أحمد الوطاسي، وتوجّه نحو مدينة تطوان مركز حكم الست الحُرّة، فوصلها على رأس جماعة من الفرسان، ومعه عائلته، وبعد يومين من وصوله إليها، أعلن نفسه حاكمًا على هذه المدينة مستقلاً عن سلطان فاس.

كانت العلاقة بي الست الحُرّة وحاكم سبتة قد تأزّمت، الأمر الذي يؤدّي إلى توقّف التبادل التجاري بين المدينتين سنة ١٥٤٢ ميلادية. لقد نشأ ما يشبه الحصار الاقتصادي، الأمر الذي تجتمع في الخفاء لمقاومته رؤوس الأموال، ممّن تدهور الوضع لديهم بين التجّار. ومن ثمّ فقد تعاونت عناصر كثيرة لنجاح المؤامرة، وهكذا يطيح محمّد حسن المنظري، بحكم الست الحُرّة، ويُصادر أملاكها، ويُبعدها عن الحكم في الثالث والعشرين من شهر أكتوبر ١٥٤٢ ميلادية.

سنغادر شفشاون حيث وُلدت الست الحُرّة، وتطوان التي شهدت مجدها حاكمة للمدينة، سنمرّ بالمدينة المحتلَّة سبتة، وكأن التاريخ توقّف هناك عند القرن السادس عشر، تنتظر معركة حُرّيّتها. تتوزّع الصور، والذكريات، كنا نقلب خبز الجغرافيا المغموس في صحن التاريخ، فتتداعى لنا شخوص، صنعوا للمكان قيمته، بحضورهم القويّ حينًا وبإبداعهم المميّز حينًا آخر. على خطى الست الحُرّة مشينا، ونتمنّى أن نجدّد الرحلة التي تُعيد اكتشاف أماكننا، مثلما تُعيد اكتشاف ذواتنا.

العــرائش
ميناء أندلسي على المحيط الأطلسي

أوّل القصيدةِ سُكَّر.

هكذا كانَ لسانُ حالنا حين توقَّفنا بمحاذاةِ المياهِ المغربيةِ الأطلسيةِ، وبعد أن اجترنا مدينتي طنجة، ثمّ أصيلة، قاصدين. جنوبَهما. مدينة العرائش.

كان توقُّفنا عند بائع للبطّيخ الأصفر، نتذوّق زادًا، أوصانا بهِ كلُّ مَن جاء إلى هنا. تحرّكت نسمة هواء تحت مظلّة شمس ساطعة، فتحرّكت معها أوراق أشجار هنا وهناك، وكأنَّ صوتَ الحفيفِ نداءُ عرّافاتٍ أسطورياتٍ، يُكرّرنَ على أسماعنا عباراتٍ، يترددُ صداها، بين مياهِ المحيطِ المالحةِ، وبركةِ الوادي العذبةِ: " الطريقُ إلى العرائش أخضر، والتاريخُ فيها أندر، لكنَّ ماء محيطها. على يمينكم. أخطر، لكل مَن اصطاد به وأبْحر، أما قَطْر بطيخها الأصفر، فله حلاوة قصب السّكّر"! فعلاً، أوّل القصيدة سُكَّر، فلا يزال طعم البطّيخ، ونحن نتأهّب لمتابعة الرحلة، يَقطرُ حيًا وحلوًا. تساءلنا ونحن نودّع البائع: "هل ستكون المدينة بمثل ما خبرنا من ثمارها؟"

لعلّ ذلك لم يكن سؤالنا وحدنا، فقد عبر من هنا. على مرّ آلاف السنين. مَن تركوا بصماتهم مرأى العين. هكذا بدا الأمرُ حين وصلنا إلى الموقع التاريخي الأوّل في رحلتنا إلى مدينة العرائش المغربية، ذلك الميناء الأندلسي، على المحيط الأطلسي.

قال دليلنا: "في كل موقع سنزوره، ستتكشّف لكم صفحة من كتاب

المدينة النفيس. سَلْ عن حضارة، وستجدها مرَّت من هنا. في هذا الموقع ستكتشف أن الفينيقيين؛ روّاد البحر وأباطرته، أسّسوا مدينة ليكسوس؛ جدّة العرائش، مثلما أقاموا في الطريق إليها مُدُن قرطاجنة في تونس، وأسّسوا عنابة وجيجل واكسيوم في الجزائر، وأنشؤوا سبتة ومليلة في المغرب، وبنوا ملقه والبيرة في إسبانيا".

تمّ اختيار الموقع من طرف الفنيقيين لسهولة الاتصال عبر النهر المؤدّي إلى المحيط الأطلسي، كما توضح الخريطة التاريخية الطوبوغرافية للمدينة المنشورة، وقد تعاقب على المنطقة. بعد الفنيقيين. الرومان الذين شيّدوا مجموعة من المُدُن المغربية القديمة مثل تمودا "تطوان" وليلي "منطقة فاس" وتنجيس "طنجة".

تأمّلتُ اللوحة المنصوبة على ناصية الموضع الأثري للمدينة الفينيقية المطمورة التي تقع على بُعد ٣ كيلومترات من العرائش، على ربوة في مدخل المدينة شمالًا، وعلى ضفّة نهر اللوكوس "مشروع تهيئة موقع ليكسوس الأثري، صاحب المشروع: وزارة الثقافة، المديرية الجهوية طنجة/ تطوان، الهندسة المعمارية كاثرين المرابط، قيمة الاستثمار ٠٠ر٠٠٠٠٠٠ ٨ درهم".

حين يجتاز البصرُ السياجَ ذا الرماح الحديدية. التي تحمي الموقع الأثري . يمكنه أن يحدّد جدران المدينة التاريخية، وقد غرتها هضبة من التراب والحشائش. تحكي حدود وهيئة الهضبات الترابية عمّا يمكن أن يخفيه ذلك الموقع الأثري من أسرار، قد تكتشفها رحلة قادمة! الصبّار الشوكي النامي والحشائش البرّيّة الخضراء والأشجار الظليلة العجوز، وحفنة من الحرّاس جلسوا في ذلك الموقع الشاسع، الكل ينتظر معنا، لم تقل لنا اللافتة موعدًا للبداية، ولم تحدّد جدولًا زمنيًا للختام!

يبدو أن الأحلام الوردية لن تُرافقنا على طول الطريق، فقبل دخولنا المدينة، وعلى تخومها التي تتماس مع الوادي والمحيط، برزت عشوائيات المباني المشيدة فوق هضبة أخرى، كانت بيوتًا لها من كل الألوان نصيب. لم يكن هذا التضادّ اللوني إلا بلاغة الشتات الذي يسكن المدينة اليوم. فالمدينة تتّسع للقادمين إليها، وهم من أرياف وجبال، مثلما هم عائدون من هجرة أوربية، ولكل فئات هؤلاء وهؤلاء أنساقهم المعيشية التي تهدّد نسيج أن تكون العرائش مدينة متجانسة ذات قوام واحد، أو هكذا سنكتشف في حوارات الأيام التالية مع ساكنيها.

العربي مع العربي

في العرائش، كانت لنا مواعيد مع أعلام بها، مثلما كانت لنا لقاءات بالمصادفة أيضًا. أجمل تلك اللقاءات العفوية كان حين جمعتْنا جلسة في موقع أثري، يقع عند أعتاب قصبة المدينة القديمة، التي تطلّ من علٍ فوق مينائها، بالباحث "العربي المصباحي" محافظ المباني التاريخية بالعرائش.

كان هاجسنا. ونحن نرى العمل جاريًا في ترميم أثر مقابلنا. أن نسأل عن خطط إحياء تلك العمارة متعدّدة الراقات الحضارية. أخبرنا العربي المصباحي أن خلاصة المشروع هو إيجاد مركز للتدبير التشاركي للتراث، يهدف التعريف بالتراث المحلي، وإدراجه ضمن المسلسل التنموي بشكل عام، جنبًا إلى جنب مع الساكنة "أهل العرائش"، وهو الأمر الذي استدعى تنظيم أكثر من ٨ ورشات تقنية، تطبيقية ونظرية، تقدّم سُبُل الحفاظ على التراث، وتنميته. عرفنا أن هذه المشاريع تتمّ برعاية المبادرة الوطنية للتنمية البشرية بإقليم العرائش، داعمًا ماديًا للمشروع، والإدارة المحلية للثقافة بالإقليم، وبشراكة أيضًا تقدّم الدعم المادي والتقني من برنامج الأمم المتحدة للإنماء، ومؤسّسة "سيريم" للبحث والدراسة في

البحر الأبيض المتوسط، ومقرّها برشلونة، وهي تعمل بتنسيق كبير كذلك مع بلدية برشلونة. طالعنا خرائط تفصيلية للمشاريع في مدينة القصر الكبير التراثية، مطالعة سبقت زيارتنا إلى مدارسها، التي تبدو على الخريطة باللون الأرجواني، ومساجدها "اللون البرتقالي"، وزواياها وأضرحتها "اللون الأخضر"، ومجمعاتها التجارية "اللون الأزرق"، ومناطقها السياحية "اللون الذهبي"، وبيوتاتها التقليدية "للون الوردي".

عرفنا أيضًا أن هناك في العرائش مشروعًا . لم يكتمل بعد . يُعيد الاستفادة من إحدى التحصينات التاريخية، وهو البرج المطلّ على البحر، ويُسمّى حصن القبيبات، لتحويله من قِبَل إحدى الشركات الخاصة إلى فندق، وهذا ضمن مجموعة من المشروعات التي تحاول إعادة تأهيل العمارة التقليدية، لتكون مزارًا سياحيًا، له فائدة تنموية للمحيط البشري، ليس فقط كفنادق، ولكن أيضًا كمقاه، ووحدات صناعات تقليدية. الجميع حاضر في معادلة التنمية، المؤسّسة الوطنية، والأفراد الواعون للمشروع الحضاري، وكذلك الأجانب المقيمون ممّن لديهم أفكارهم وصلاتهم مع الآخر المموّل لبعض هذه المشروعات. وهو ما دفع البلدية لتقديم الدفع اللازم للاستثار في المجال الثقافي المبني على خلفية تراثية، جنبًا إلى جنب مع مؤسّسات المجتمع المدني التي تؤدّي دورًا هامًّا . بحسب رأي العربي الصوفي . للمحافظة على التراث بشكل جديد، يضيف للحركة السوسيو اقتصادية للمدينة، وتكمل طيف الرعاية للمشروعات المماثلة التي تقدّم لها الإدارة الرسمية الغطاء الرسمي والقانوني.

لا يشعر العربي المصباحي بأيّ تخوّف من التأثير السلبي للسياحة، على البنية الخاصة بالعرائش التاريخية والتراثية، فالمدينة لم تصل بعد إلى هذه المرحلة، وهذه المشروعات هي لجعل السياحة عنصرًا من عناصر التنمية المحلية.

سرّني اهتمام المملكة بالصناعات التقليدية والحِرَف اليدوية، حتّى إنني رأيتُ في أثناء زيارتي للصحف إعلانًا ملوّنًا بحجم ربع الصفحة بالصحف اليومية، تدعو فيها كتابة "وزارة" الدولة المكلّفة بالصناعة التقليدية الصانعات والصنّاع التقليديين للتقدّم إلى الجائزة الوطنية لأمهر الصنّاع التقليديين في فروع الديكور والأثاث والمجوهرات والألبسة.

كان الحديث في ساحة دار المخزن، نسبة إلى البناء ذي الصومعة الذي كان مسكن ممثّل السلطة الرسمي بالمدينة منذ القرن الخامس عشر، "يسمّى بالإسبانية كوماندانسيا، وهو مقرّ السلطة العسكرية، كما أصبح في فترة الحماية الإسبانية في بدايات القرن العشرين". كان المكان قد أُعيد بناؤه بشكل جديد خلال القرن السابع عشر. خلال حكم السلطان العلوي مولاي إسماعيل. لتؤكّد على هويّتها كدار ممثّل السلطة المركزية، وكانت مع بعض الوحدات التابعة لها تمثّل مجمعًا إداريًا وعسكريًا، يحرس القصبة، وهي الحي السكني القديم بالمدينة، التي ترجع إلى الفترة الوطاسية، بالتحديد في العام ١٤٧١ميلادية، وهو الذي نقل مدينة العرائش من موقعها التاريخي الفينيقي في الليكسوس إلى موقعها الحالي، بعد إفراغ الليكسوس من أهلها، ليسكنوا القصبة. ربمّا يكون أحد الأسباب. كما تقول فرضيات علمية وتاريخية. هو ندرة الماء في الضفّة الأخرى. حيث الموقع القديم على ربوته الترابية اليوم. ممّا عجّل بهذه النقلة الديموغرافية والجغرافية في القرن الخامس عشر، إلى الموقع الحالي المشهور بعيونه المائية. وفي القصبة، لا يزال السوق الصغير، كما يُسمّى، أقدم الأسواق التي لا تزال تستقبل زوّارها منذ القرن الثامن عشر، واهتمّ سيدي محمّد بن عبد الله، وهو أحد السلاطين العلويين، بإنشاء السوق والمسجد الأعظم ومدرسة تقليدية "أصبحت فندقًا" ومرافق أخرى لكون العرائش مرفأ هامًّا على المحيط الأطلسي.

معالم القصر الكبير

كنا نغادر صحبة المصباحي، من الموقع الذي يُشاع خطأ أن اسمه البرج اليهودي! وهو برج يطلّ على البحر، بُني خلال فترة الحماية الإسبانية الأولى في القرن السابع عشر، بعد العام ١٦١٠ ميلادية الذي شهد احتلال العرائش، ليكون مراقبًا للبحر وللمدخل الرئيس للمدينة، وهذه التسمية التي تعزوه لليهودي تعود للرواية الشفهية، لاعتقاد العامة بوجود طبيب، له أصول يهودية، يرعى السلطان السعدي إبّان القرن السادس عشر، في أثناء معركة وادي المخازن الشهيرة، وأنه كان يسكن هذا البرج.

العمارة في المدينة العتيقة. كما تبدو للزائر. تشي بتأثّرها الكبير بالعمارة الغربية. وهو أمرٌ، مردّه أيضًا لفترة الحماية الإسبانية الأولى في القرن السابع عشر، وهو ما جعل المدينة تمرّ بتحوّل عمراني، له خصوصيته.

الأمر اللافت في القصر الكبير حين تدرس الزوايا والأضرحة هو شيوع اللونين الأبيض والأخضر، إلا من بعض الاستثناءات، سواء في الباب، أو القبّة، أو الأعمدة النحيفة، أو الجدران. هكذا كان الأمر في زاوية سيدي قاسم بن زبير، وزاوية التيجانية، وزاوية فاطمة الأندلسية، وزاوية البدوية الناصرية، وأضرحة سيدي بوغالب، وسيدي بلعباس، وللا فاطمة بن أحمد "المتوفّاة في ١٠٥٠ للهجرة كما يقول الشاهد". سيضاف اللون الأزرق في عمارة الفنادق والحمامات المرمّمة، كفندق العطّارين والطود وحمّام سيدي ميمون. لا تزال بعض الحمّامات المُهمَلَة تحتاج إلى ترميم

كبير. وسنجد البيوت والمدارس والأسواق أسعد حالًا، ربمّا بالرعاية الفردية التي حافظت عليها على مدى عقود، مثل سوق سبتة، ودار البداغ، ودرسة سيدي بوحمد والمركز الثقافي، لكن الأماكن التاريخية التي نالت الاهتمام الأكبر كانت المساجد، هكذا تقول لنا عمارة مسجد أبي حديد، ومسجد السويقة، ومسجد سيدي منصور، ومسجد السيدة وغيرها "الذي يُعدّ بين أجملها بمشربياته الخشبية وأقوسه الهندسية، وجدرانه البيضاء".

نهار الميناء ومساؤه

عدد سكان العرائش، طبقًا لإحصاء ٢٠٠٤، هو ٤٧٢,٣٨٦ نسمة، وبما أن مساحة العرائش هي ٤٥٠ كلم^2 "من ٢٧٨٣ كيلومتر مربّع هي مساحة الإقليم كله" فإن نسبة الكثافة السكانية تبلغ ٢٣٠,٣ / كلم^2. في الشرق منها شفشاون، وفي الجنوب القنيطرة، وفي الشمال تطوان وطنجة وأصيلة، وفي الغرب، بالطبع، المحيط الأطلنطي بواجهة بَحْرية، تبلغ ٥٦ كيلومتر طولًا. هذا الشاطئ، مع التكوين الجغرافي الطبيعي للميناء، يعني ارتباط السكان بالصيد، والمهن البَحْرية، ولها كانت رحلة أو أكثر للميناء العرائشي ضرورة.

لدى وصولنا المبكّر، بدا نهار الميناء الصغير هادئًا، وكسولًا. شباب يصلح الشباك التي اهترأت من رحلة صيد سابقة. صندوق أسماك صغير ينتظر مشتريًا، فاتته أسواق الصباح المبكّرة. مراكب تتهادى داخلة المرفأ، لتنعس مع أصحابها بعد مفازة بَحْرية صعبة. لم تكن الوجوه مستبشرة، كأن هناك ألمًا ما. تبدو المراكب بدائية بعض الشيء، وربمّا يمكن وصف أغلبها بأنها قديمة. فوق سطح المركب الكبير يتجمّع عشرات البحّارة، ينتظرون بوصلة اليوم، التي ستحدّد مكان الصيد.

الشباك المتكدّسة تحتاج سَحَرَة مَهَرَة، لكي يفكّوا طلاسمها، لينطلقوا بعد إشارة البدء، وفي قلب المركب، يختفي في العنبر فريق آخر من

البحّارة، مهمّته وضع ما صاده الرفاق في الصناديق المخصّصة، مع الثلج الحافظ لها، لضمان وصولها طازجة. على الربّان أن ينتبه حين يعود الجميع، ليعبروا مدخل الميناء الذي سمّاه الإسبان: لا بوكا دي ليون، أي "فم السبع" بسبب شراسة الجغرافيا التي قد تقلب المركب، وما حمل.

في الليل، تسكن المركب المرفأ، وينقل بحّارتها صناديق الأسماك إلى "لوخا"، وهو الاسم الذي يُطلقونه على المكتب الوطني للصيد البَحْري. هناك ستسمع الكثير من الشكوى، من الجميع. كانت العبارات تدين الكل، اللوخا، والصيّادين، وأصحاب المراكب، وخطورة المرفأ، ومياه المحيط أيضًا.

الكل يتحدّث عن كثرة الحوادث للباحثين عن السمك؛ الذهب الأزرق، ربّما ليس فقط بسبب الموج الهادر، ولكن، بسبب المراكب المهترئة التي تفتقد لسب الأمان وتقنياته. الكل يشكو من قلّة ما يأخذون "من نحو ٨٠ ألف درهم قد تحصده الرحلة البَحْرية الواحدة لا يتجاوز نصيب البحّار ٣٠٠ درهماً!" أما الخطر الحقيقي على الثروة السمكية، فهو في استخدام الضوء الباهر لجذب أسماك الصيد، وهو ما يعني أن مقابل كل صندوق أسماك هناك ٤٠٠ صندوق من الأسماك الصغيرة تُقتَل بسبب هذه الأشعّة، ممّا يعني خسارة دامية على المدى الطويل. فضلاً عن البطالة التي تطال الكثيرين، فيظلون أسابيع بلا عمل.

لعل الوضع الاقتصادي يختلف حين ننظر للفلاحة، وخاصة بسهل حوض نهر اللوكوس، أحد المناطق الزراعية الرئيسة بالمملكة المغربية، ومساحته الإجمالية ٢٥٦,٠٠٠ هكتار منها ٤٧,٣٠٠ هكتار صالحة للزراعة. يتميّز الإنتاج الفلاحي بالمنطقة بتنوّع في الإنتاج النباتي والحيواني، وتساهم منطقة اللوكوس بنسبة ٨٠٪ من الإنتاج الوطني من توت الأرض، و٧٪

من الخضروات و١٥٪ من السكر و٧٪ من الزيوت و٨٪ من الحليب و١٠٪ من العسل.

في ساحة التحرير

بقلب المدينة، تدخل القلب ساحة التحرير، بفضل جماليات عماراتها التي تقدّم كل منا . حسب ما يرصد دليلنا . صورة من صور العمارة الأندلسية، فهذه من ألميريا، وتلك من قرطبة، وهذه غرناطية، وهكذا.

كانت الساحة بمثابة بطاقة بريدية أندلسية مُرسَلة إلى سكان العرائش، لكن العمائر هذه ليست تحظى بما تستحقّ من ترميم واهتمام، والأغرب أن هذه الهندسة الموريسكية الجديدة مهدّدة بالانهيار، بل إن إحدى هذه العمائر هُدم بالفعل، وشيدت أخرى محلّها، سدّت فضاء البحر، تعادي العمارة التي أُقيمت محلّها، فبدت نشازًا هجينًا.

كانت جلستنا في الساحة مع نخبة من رجالات المدينة، يتصدّرهم البروفسور عبد الإله اصوادقه رئيس جمعية عبد الصمد الكنفاوي التي صادف أنها تنظّم بالعرائش الموسم الأوّل من مهرجان المسرح والفنون الشعبية. لم تكن الفنون المحلية وحدها حاضرة، بل كذلك تحدّث الجميع عن عرض الليلة الماضية لمجموعة الفلامينكو الإسبانية "لاروبا فييخا". وهكذا، مرّة أخرى، وليست أخيرة، سيكون الحسّ الأندلسي حاضرًا في الأدب والفنّ والحياة.

أتى الشورو مع إحدى الأمسيات إلى المائدة مع الشاي والقهوة والعصائر. "الشورو. لمَن لم يعرفه مثلي قبل زيارة العرائش. هو مخبوزات خفيفة، تجدها مثل سيقان طويلة وليّنة من البسكويت، وهي فريدة الشكل هنا، مقابل شقيقاتها المستديرات من الشورو في مُدُن مغربية أخرى".

على المائدة، دار حديث عن الميدان والحياة وتحوّلاته، وأتت مجموعة من الكُتُب المُهداة، بالعربية والإسبانية، وكأن مائدة الفكر هنا ذات لسانَين. لم يكن ذلك اللقاء الوحيد مع البروفيسور، فقد التقينا في شرفة على الأطلنطي، وفي منزله، وفي المدرسة التي درس بها الروائي محمّد شكري، وساعد البروفيسور في ترميمها؛ مدرسة المعتمد بن عباد، التي كرّمت البروفيسور في عادة سنوية، تختار أبناءها الذين برزوا في الحياة.

في منزله، حدّثنا البروفسور عن الكنفاوي "١٩٢٨. ١٩٦٧" الذي تحمل الجمعية اسمه، والذي درس في العرائش وطنجة والرباط، ليصبح مع الطاهر وعزيز مؤسّسًا لأوّل فرقة محترفة، سُمّيت رسميًّا فرقة المسرح المغربي، من طرف الأمير الحسن في ٣ فبراير ١٩٥٦ ميلادية، وقد أصبح الكنفاوي مدير فرقة المسرح في المهرجان الدولي للمسرح ساره برنار في باريس بالعام نفسه، وشغل مناصب كثيرة، وكتب نصوصًا أكثر، لكن أطرف ما قرأتُ له كتاب، أصدرته الجمعية. ضمن مجموعة مؤلفاته. للأمثال الشعبية، دوّن فيه ٤٨٥ مثلًا شعبيًا، باللهجة الدارجة، وترجمتها إلى الفرنسية. يقول، مثلًا: اللي زرع الشوك، كيمشي فيه بالحفي "من زرع الشودك سار عليه حافي الأقدام"، وإضافة "الكاف" في أول اللهجة المحكية متكرّرة، وإذا استبدلناها قولنا "مثل الذي"، بانت لنا أمثلة عديدة:

كَيطلي وجْهُ بالفَحْم وكيقول مُعلّم حدَّاد، كيزيد في الرباب فتلة "وتر" والطنبور نغمة، كيحشم من خياله "مثل الذي يخاف من ظلّه"، كتفشار بسوالف جارتها "مثل التي تحكي ما جرى لجارتها، كأنه جرى معها"، وتكرار الكاف مثل تكرار "حتّى" كثيرٌ في أمثال الكنفاوي، مثل: حتّى كال واتكى، عاد قال هد الخبز بلا مسكة "بعد أن انتهى من طعامه واتّكأ شبعًا، قال إن الخبز لم يكن ذا طعم!"، ولعلّي أختتم بمَثَل أعجبني، يحمل حكمة

السنوات ونكهة اللغة المحكية: الجماعة تفرّقت "أي ذهبت الأسنان، لأنها كانت معًا"، والقريب صار بعيد "أي ضعف البصر"، والبعيد صار قريب "للموت"، وجوج ولو ثلاثة "والاثنان أصبحا ثلاثة، إشارة للقَدَمَين والعصا عند الهرم!".

بالمدينة، عبرنا السوق المركزية، وتُسمّى البلاصا، وتضمّ محال الفاكهة والخضروات، والأسماك واللحوم، وقد بُني من قِبَل الإسبان في عهد الحماية الثانية، ووَضع حجر الأساس له، سنة ١٩٢٤ميلادية، المهندس أندريس جالمبس نادال، واستأنفه بعده بعام المهندس ليون أورزايس، مهندس مجلس الأعمال المحلية، والذي قام بإدخال بعض التغييرات الخارجية عليه، وقد انتهت عملية البناء سنة ١٩٢٨ ميلادية.

وقفة تاريخية

لدى محدّثينا تعدّدت الإشارات إلى الحماية الإسبانية، ومن المهم أن نراجع التاريخ المعاصر الذي سبق الاستقلال في ١٩٥٦ ميلادية، لكي نبرّر هذا التعدّد العمراني في المدينة، ونفسّر الحضور اللغوي أيضًا. فقد رأيتُ واقتنيتُ مؤلّفات عربية وإسبانية، واستمعتُ إلى قصص ومرويات شعبية، تؤكد كون العرائش ميناء أندلسي على المحيط الأطلسي.

في البداية نحن نعرف أن إسبانيا بدأت تحتلّ منطقة الريف على مقتضى اتّفاقها مع فرنسا سنة ١٩٠٤ميلادية، فثار الشريف أحمد الرسولي "من قبيلة بني عروة" على السلطان، واختطف القنصل الأمريكي وعائلته. وقد عيّنه السلطان عبد الحفيظ بعد ذلك حاكمًا على الجبالة من سكان الريف، وسهّل نزول القوات الإسبانية في ميناء العرائش في سبتمبر ١٩١١ميلادية، طمعًا في أن يعترف له الإسبان بالاستقلال بإدارة الجبالة، فيتولى منصب خليفة السلطان في منطقة النفوذ الإسباني. لكن، خاب ظنه، حيث عيّن السلطان أحد أقاربه خليفة في تطوان سنة ١٩١٣ ميلادية، واحتلّ الإسبان مدينتي أصيلة، ثمّ تطوان في السنة نفسها. وخلال الحرب العالمية الأولى عقد الإسبان هدنة مع الرسولي سنة ١٩١٥ ميلادية، فبقي حاكمًا على إقليم الجبالة.

اتصل الرسولي بالألمان في أثناء الحرب، ممّا جعل إسبانيا تغيّر سياستها معه إرضاء لفرنسا، وتتوغّل في إقليم الجبالة، فتحتلّ شفشاون

في صفر أكتوبر ١٩٢٠ ميلادية، بعد تكبُّدها خسائر فادحة. لكن الرسولي فضّل التعاون مع الإسبان رغم ذلك على أن يخضع لمحمّد بن عبد الكريم الخطّابي، إلى أن تمكّن الخطّابي من طرد الإسبان، وأسره سنة ١٩٢٥ ميلادية. وقد بدأ الخطّابي حركة المقاومة بعد أن استولت إسبانيا على شفشاون، وأخذت تركّز قوّاتها على بلاد الريف، فانتصر عليها عند إبرن في سنة ١٩٢١ ميلادية، وشجّعه ذلك الانتصار على مهاجمة المراكز الإسبانية الأخرى، وساهمت انتصاراته في توسيع نفوذه بين الأهالي، وتدعيم زعامته لقبيلة ورياغل التي انتقلت إليه بعد وفاة أبيه سنة ١٩٢٠ ميلادية.

وفي ٢٧ نوفمبر ١٩١٢ ميلادية وقَّعَتْ فرنسا اتفاقية مع إسبانيا لاقتسام المغرب بينهما. وقد ميّزت الاتفاقية بين قسمين في منطقة النفوذ الإسباني من حيث وضعهما القانوني، فيشمل القسم الأول جيبي سبتة ومليلة ومنطقة إفني في الجنوب، حيث تمارس إسبانيا حقوق السيادة بدون قيد، ويشمل القسم الثاني شمال المغرب من الحدود الجزائرية إلى نقطة جنوب ميناء العرائش على ساحل الأطلسي، تستمدّ إسبانيا وجودها فيه من معاهدة الحماية بين فرنسا والسلطان، ويمثّله به خليفة، يقيم بتطوان، ويخضع لإشراف الإدارة الإسبانية، كما يخضع هو نفسه للإقامة العامة الفرنسية، وتمارس فيه إسبانيا صلاحيات الحماية. كما تؤكد الاتفاقية على جعل طنجة منطقة محايدة، ثمّ تطوّر أمرها إلى التدويل في ديسمبر ١٩٢٣ ميلادية. وبذلك أصبح المغرب الأقصى في عهد الحماية مقسمًا إلى أربع مناطق، تختلف كل منها عن الأخرى من حيث الوضع القانوني. وفي منطقة الحماية الفرنسية، قسّم المقيم العام إدارة المغرب إلى ثلاثة أجهزة، هي: إدارة المخزن التي احتفظت بطابعها القديم، والإدارة الشريفية الجديدة التي يقوم بها مثقّفون مغاربة لإدارة الشؤون الفنّيّة الخاصة بالأهالي، والإقامة العامة التي تهيمن على سياسة البلاد العليا في مجالات الخارجية والدفاع والأمن العام. ولم يبقَ في مجلس الوزراء سوى ثلاثة مغاربة، هم الصدر

الأعظم الذي انتقلت معظم اختصاصاته إلى الكاتب العامّ للحماية، ووزير العدل الذي صارت سلطاته الحقيقية على المحاكم الشرعية والمعاهد الدينية بيد رئيس مراقبة العدل بالإدارة الشريفية، في حين كانت إدارة العدل فرنسية محضة، ووزير الأوقاف الذي كانت سلطته الفعلية بيد موظّف فرنسيّ لدى الإدارة الشريفية، في الوقت الذي وُضعت فيه إدارات الفلاحة والمالية والأشغال العامة والبريد والصناعة بأيدي مديرين فرنسيين يُديرونها إدارة مباشرة. كما عُيّن مراقبون فرنسيون خارج العاصمة بالجهات لمراقبة الباشوات وقادة الأقاليم المغاربة.

تأثيرات خارجية

في ظلّ هذه الإدارة، دخل المغرب الأقصى مستوطنون زراعيون فرنسيون وأصحاب حِرَف ورجال أعمال وتجارة، ورغم أن المقيم العام ليوتي لم يكن يشجّع الهجرة، فقد بلغت مساحة الأراضي التي امتلكها فرنسيون في عهده ٤٠٠ ألف هكتار. وقد فتح باب الهجرة والاستيطان بعده على مصراعيه، فاستغلّ مستوطنو الجزائر سهل الملوية في الشرق، وتركّز عدد كبير من المعمرين في سهل الشاوية. وفي أبريل ١٩١٩ ميلادية، استصدرت الإقامة العامة ظهيرًا بجواز استغلال أراضي القبائل غير المزروعة في مقابل إيجار رمزي، وبلغت الملكيات الأوروبية في الأربعينيات من القرن العشرين نحو مليون هكتار، استأثرت بنصيب الأسد في توزيع المياه، ممّا أوقع ضررًا كبيرًا بالزراعة الأهلية. كما قامت شركات رأسمالية فرنسية خاصة بالبحث عن الثروات الباطنية، واستغلّت مناجم للفوسفات والمعادن كالحديد والمنجنيز والرصاص والكوبالت والنحّاس وغيرها بالمغرب.

معركة وادي المخازن .. حطّين الغرب الإسلامي

لكن، من بين التاريخ كله. قديمه وحديثه. يذكر الجميع في العرائش بفخر معركة وادي المخازن. فبعد احتلال البرتغاليين لمدينة سبتة، دشّنت

حملة أخرى موازية لحملة الصليبيين إلى الشرق الإسلامي، ضمّت جيوش الغزاة برعاية الفاتيكان البرتغاليين والإسبانيين والألمان والإيطاليين. وأمام نهر وادي المخازن قرب مدينة القصر الكبير كانت معركة، سُمّيت فيما بعد "معركة الملوك الثلاثة"!

كان السلطان المغربي آنذاك وهو أبو مروان عبد الملك المعتصم بالله السَّعدي، وأخوه أبو العبّاس أحمد المنصور، قد أعدّا للغزاة مقبرة استثنائية. أما الغزاة، فقد كانت تحرّكهم أهواء الانقضاض على الثروات الإفريقية، خاصة ما تنامى لمسامع هنري حاكم سبتة البرتغالي عن وجود مناجم الذهب في غانا. وقد أراد ملك البرتغال الشاب "سبستيان" القيام بعمل سياسي ديني يمحو ما وصم به عرش حكم أبيه يوحنّا الثالث من ضعف وتخاذل، أدّيا لانسحاب البرتغاليين في عهده من عدد من المناطق، فعبّأ معه اثني عشر ألفًا من البرتغال، كما أرسل إليه الطُّليان ثلاثة آلاف، ومثلها من الألمان وغيرهم عددًا كثيرًا، وبعث إليه البابا صاحب روما بأربعة آلاف أخرى، وبألف وخمس مئة من الخيل، واثني عشر مدفعًا، وجمع "سبستيان" نحو ألف مركب، ليحمل هذه الجموع إلى العدوة المغربية، رغم تحذير فيليب الثاني ابن أخته عاقبة التوغّل في أرض المغرب.

أبحرت السفن الصليبية من ميناء لشبونة باتجاه المغرب، وأقامت في "لاكوس" بضعة أيام، ثمّ توجّهت إلى "قادس" حيث أقامت أسبوعًا كاملًا، ثمّ رست "بطنجة"، وفي طنجة وجد "سبستيان" حليفه المتوكّل، ثمّ تابعت السفن سيرها إلى "أصيلًا"، وأقام "سبستيان" بطنجة يومًا واحدًا، ثمّ لحق بجيشه. ودوت في كل أنحاء المغرب صرخة واحدة، كما يقول الباحث ناصر بن محمّد الأحمد "اقصدوا وادي المخازن للجهاد في سبيل الله". وأشار المتوكّل على سباستيان أن يتقدّم لامتلاك "تطّاوين والعرايش والقصر.

ثمّ كتب عبد الملك لأخيه أحمد المنصور، وكان نائبه على مدينة فاس وأعمالها أن يخرج بجند فاس وما حولها، ويتهيّأ للقتال، ثمّ كتب إليه أيضًا في شأن مؤونة الجيش، وهكذا سار أهل مَرَّاكش وجنوبي المغرب بقيادة عبد الملك المعتصم بالله، وسار أخوه أحمد المنصور بأهل فاس وما حولها، وكان اللقاء قرب محلَّة القصر الكبير. كان الجيش البرتغالي ١٢٥,٠٠٠ مقاتل وما يلزمهم من المعدّات مع ألوف الخيل وأكثر من أربعين مدفعًا، وكان معهم المتوكّل بشرذمة، تتراوح ما بين ٣٠٠ إلى ٦٠٠ رجل. وكان الجيش المغربي بقيادة عبد الملك المعتصم بالله ٤٠,٠٠٠ مجاهد، يملكون تفوّقًا في الخيل، ومدافعهم أربعة وثلاثون مدفعًا فقط.

اختار عبد الملك المعتصم بالله القصر الكبير مقرًا لقيادته، وخصّص مَن يراقب تحرّكات "سبستيان" وجيشه بدقّة، ثمّ كتب إلى "سبستيان" مستدرجًا إيّاه إلى ميدان المعركة التي اختار: "إني قطعتُ للمجيء إليكَ ستّ عشرة مرحلة، فهلا قطعتَ أنت مرحلة واحدة لملاقاتي؟" فنصحه رجاله والمتوكّل أن يبقى بأصيلا، ليبقى على اتّصال بالمؤن والعتاد والبحر، ولكن تشوّق "سبستيان" إلى الحرب وغروره بمَن معه من قوّات ومدفعية، جعله يرفض نصيحة أركانه، فتحرّك قاصدًا القصر الكبير، حتّى وصل الضِّفّة الشمالية لوادي المخازن، فشاهد طلائع الجيش المغربي المسلم متّجهة نحوه. عبر "سبستيان" ومَن معه جسر وادي المخازن، حيث خيَّم قُبَالة الجيش المغربي، وفي جنح الليل، أمر عبد الملك أخاه أحمد المنصور في كتيبة من الجيش بنسف قنطرة جسر وادي المخازن إتمامًا للخطّة التي وضعها، فالوادي لا معبر له سوى هذه القنطرة.

وفي صباح الاثنين ٣٠ جمادى الآخرة سنة ٩٨٦هـ "في ٤ أغسطس ١٥٧٨ ميلادية" انطلقت عشرات الطلقات النارية من الطرفين كليهما إيذانًا ببدء المعركة، ورغم تدهور صحّة السلطان عبد الملك المعتصم بالله الذي رافقه المرض وهو في طريقه من مَرَّاكش إلى القصر الكبير، خرج بنفسه،

ليردّ الهجوم الأوّل، ولكن المرض غالبه، فغلبه، فعاد إلى محفَّته، وما هي إلا دقائق حتّى لفظ أنفاسه الأخيرة، ومات وهو واضع سبابته على فمه، مشيرًا أن يكتموا الأمر حتّى يتمّ النصر.

ومال أحمد المنصور بمقدّمة جيش المغاربة على مؤخّرة البرتغاليين، وأُوقِدت النار في بارود البرتغاليين، واتجهت موجة مهاجمة ضد رماتهم أيضًا، فلم يقف البرتغاليون لقوّة الصدمة، فتهالك قسم منهم صرعى، وولّى الباقون الأدبار قاصدين قنطرة نهر وادي المخازن، فإذا هي أثر بعد عين، نسفها المسلمون بأمر سلطانهم عبد الملك المعتصم بالله، فارتموا بالنهر فغرق مَن غرق، وأُسر مَن أُسر، وقُتل مَن قُتل. وصُرع "سبستيان" وألوف من حوله. وحاول المتوكّل رمز الخيانة الفرار شمالًا، فوقع غريقًا في نهر وادي المخازن، ووُجدت جثّته طافية على الماء.

دامت المعركة أربع ساعات وثلث الساعة، وبُويع أحمد المنصور بعد انتصار وادي المخازن. ثمّ كتب إلى القسطنطينية مقرّ السلطنة العثمانية، يُعلم السلطان مراد خان الثالث العثماني وإلى سائر ممالك الإسلام المجاورين للمغرب، بإخفاق الغزو البرتغالي الصليبي لأرض المغرب، واستئصال شأفته، فوردت عليه الرُّسُل من سائر الأقطار مهنّئين مباركين. وقدمت رُسُل السلطان العثماني ومعهم هديّته، وبعدها جاءت رُسُل ملك فرنسا، والأرسال تصبح وتمسي على أعتاب تلك القصور. وكان سرّ تسمية معركة الملوك الثلاثة هو وفاة ثلاثة ملوك، اختلفت نهاياتهم، فالملك الأوّل هو البرتغالي "سبستيان"، والثاني خائن غريق، استخرج الغوّاصون جثّته من نهر وادي المخازن، والثالث عبد الملك المعتصم بالله، الذي استشهد، وبقيت سيرته حيّة، تحكي إخلاصه وحكمته وشجاعته وفروسيته، ومثلما كانت حطّين في الشرق الإسلامي انتصارًا على الصليبيين، أصبحت شقيقتها في وادي المخازن معادلًا تاريخيًا لها.

شرفة على الأطلسي

أمام مقهى يُسمّى بالإسبانية "شرفة على المحيط الأطلسي"، وكأنه يصف العرائش نفسها، صحبنا دليلنا، لنشاهد حصن القبيبات "نسبة لقبابه الصغيرة"، الذي يقع فوق مقرّ الحراسة القديم المشرف على المحيط الأطلسي ومدخل نهر اللوكوس بجوار حي القبيبات بالمدينة القديمة، وهو من الحصون القديمة التي كانت تمتاز بها المدينة، حيث أمر السلطان أحمد المنصور ببناء حصنَين جديدَين خلال القرن السادس عشر الميلادي، وتحتلّ هذه القلعة مكان قلعة النصر التي شيدت في العصر الوسيط، وقد رُوعي في عمارة الحصن الأسس الفنّيّة السائدة في إيطاليا آنذاك، فقد قال لي محدّثي إن مصمّمها أسير إيطالي! أخذ حصن القبيبات عدة أسماء، واستُعمل كمستشفى مَدَني في عهد الإسبان، إلى أن امتدّت إليه يد الإهمال، فلم يبقَ منه إلا الأطلال، وحديث الأمل في أن يعود فندقًا، كما قال لي محدّثي الأوّل الأثري بداية الرحلة.

في مساء ثان، كان لنا موعدٌ جديد مع البروفسور في منزله، ولقاء متجدّد مع الحضور الأندلسي بالعرائش. لم يكن ذلك في العشاء الذي تضمّن وجبة البايه الأندلسية الشهيرة، ولكن، أيضًا في متعة عزف على الجيتار للفنّان الكبير العدلوني صدوقه، هكذا تجاور الدوكالي مع أمّ كلثوم وعبد الوهاب وعبد الحليم حافظ، وبينهم كان اللقاء مع منتخبات إسبانية، وكان ختامها مع "مانويلا " خوليو إجلسياس: مع حلول الليل والأحلام، تكون العيون السود، لمانويلا حبيبتي..

يغنّي العازف البارع بالإسبانية صادحًا وسط إعجاب الجميع، أسمعه، وأنا أخرج، لأطلّ من الشرفة التي تواجه الأطلسي. هنا كلٌّ يُغني على "مانويلاه"؛ الشباب العائد من أوروبا في إجازة لبلده العرائش، البحّارة الذين تجاوزا فم الميناء إلى عرض الماء بحثًا عن الرزق، السيّارات التي تحمل الورود على ظهرها، لتشي بالعرسان فيها، تتبعهم قافلة المهنّئين، بائعو الشورو، الصخب الجميل، والنوارس التي تحلّق فوق حصن القبيبات. كان المشهد موزاييك مختلطًا، لعلّ الصورة أبلغ ما يعبّر عن العرائش اليوم، ذلك الميناء الأندلسي، على المحيط الأطلسي، الذي يحاول أن يجدّد شباب عمارته، ويحفظ سيرة نضاله، ويُؤمِّن مستقبل أبنائه.

فهرس المحتويات